

Gaylord
PAMPHLET BINDER
Syracuse, N. Y.
Stockton, Calif.

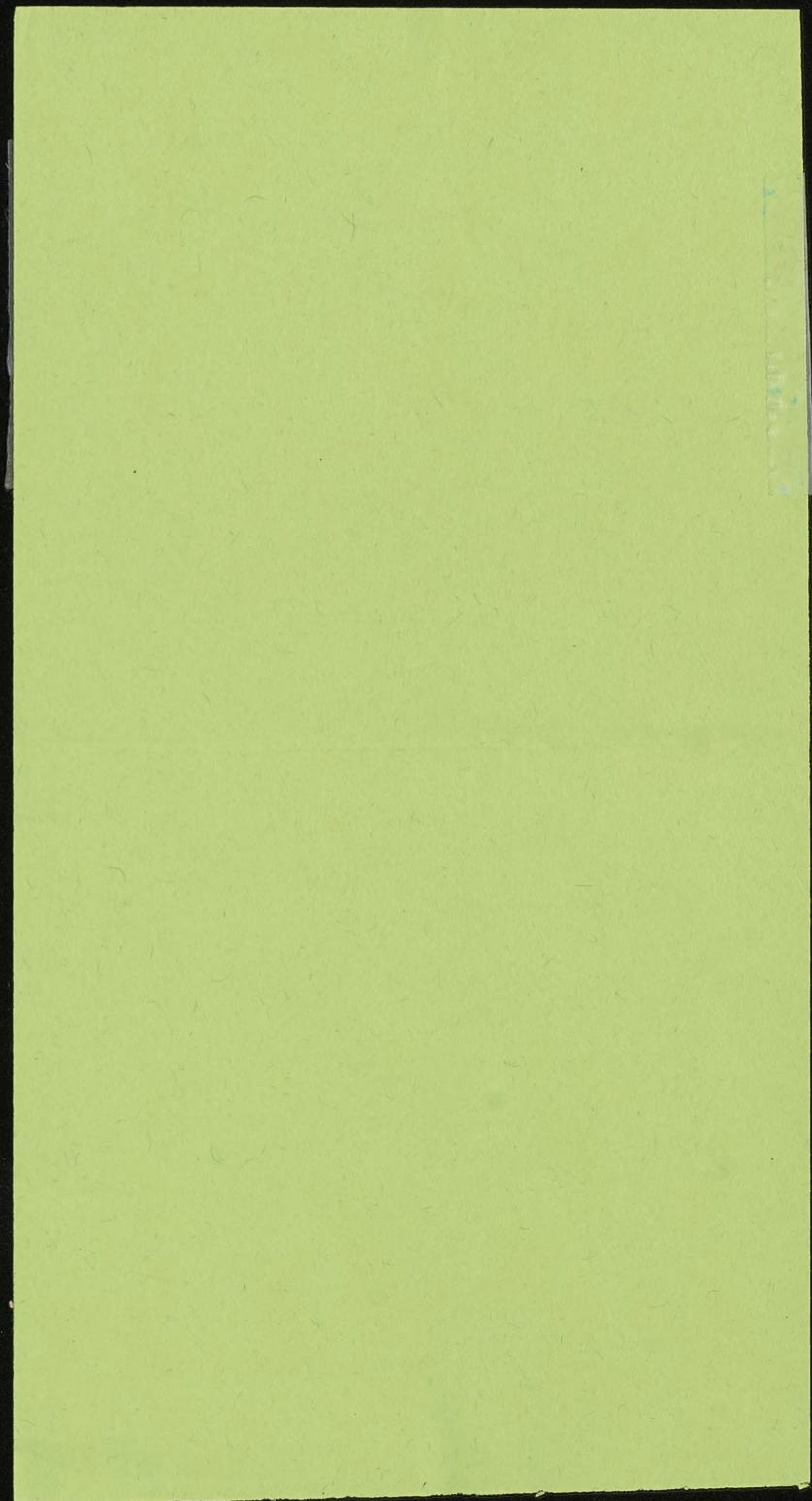
THE LIBRARIES
COLUMBIA UNIVERSITY

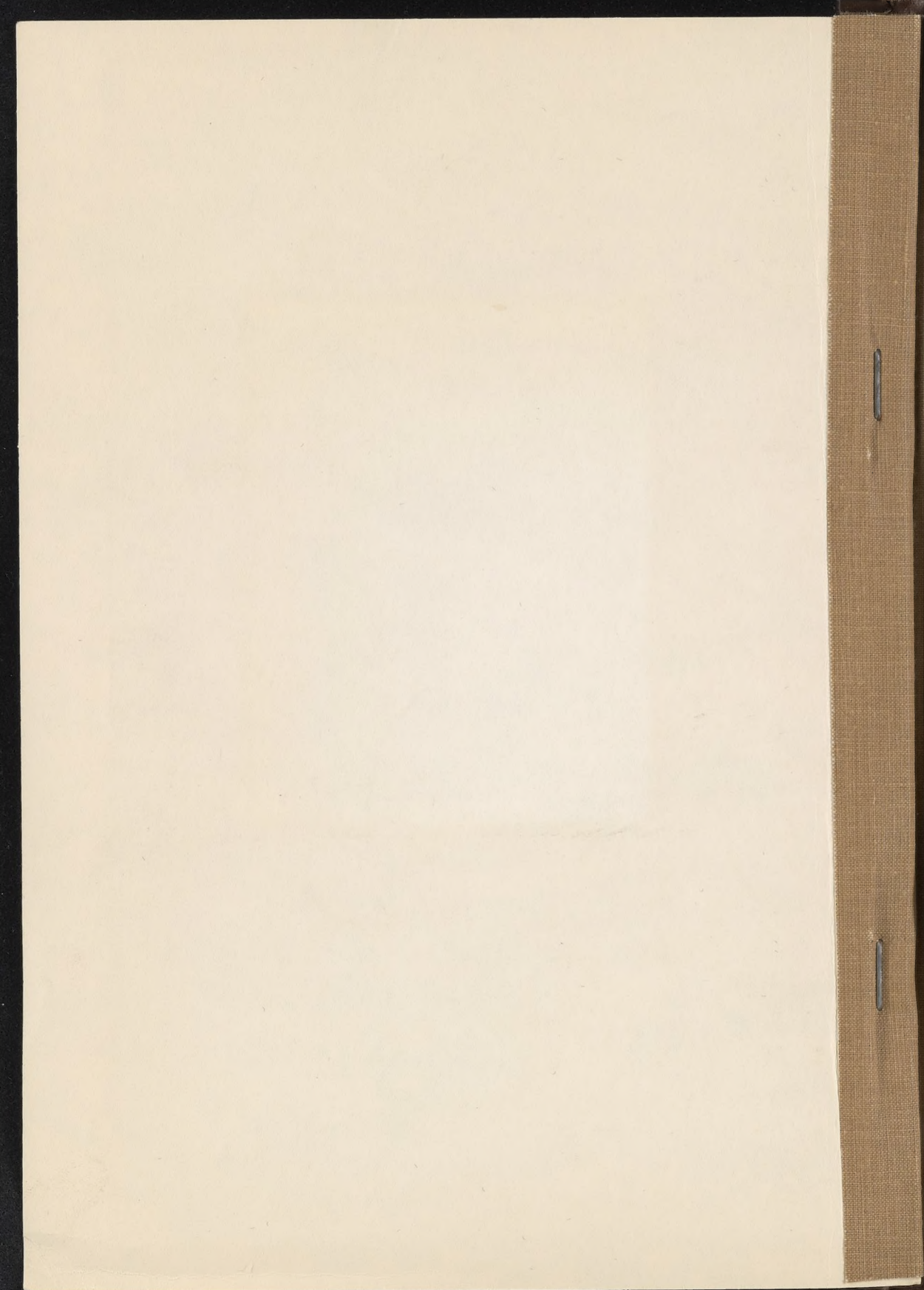


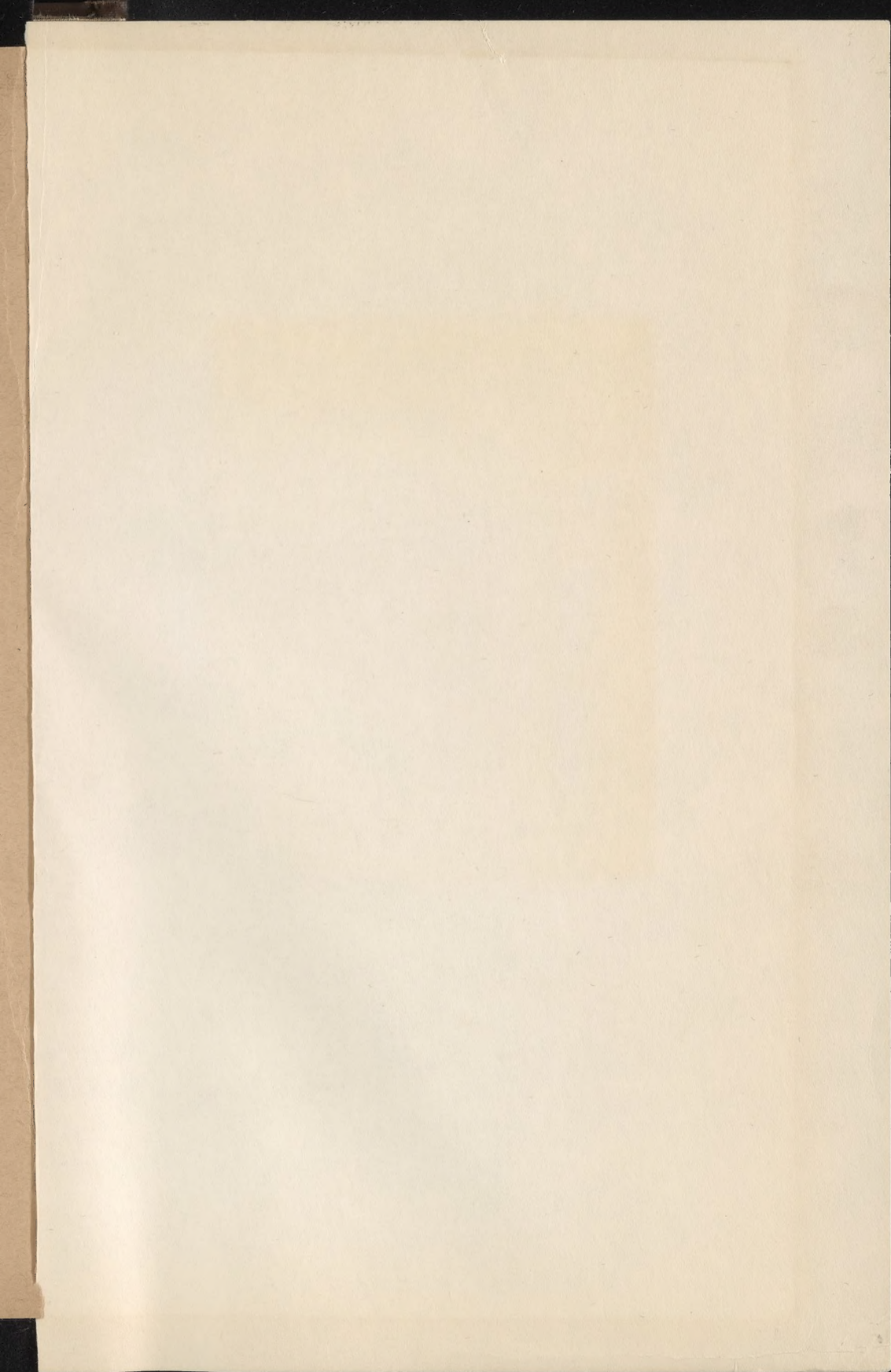
PLEASE RETURN THIS ITEM
DIRECTLY TO:

ReCAP

400 FORRESTAL ROAD
PRINCETON
NEW JERSEY 08540
USA







ميشيل لباد

مجاز في التاريخ
دبلوم في التربية
دبلوم عليا في الدراسات الاجتماعية

الاسماعيليون

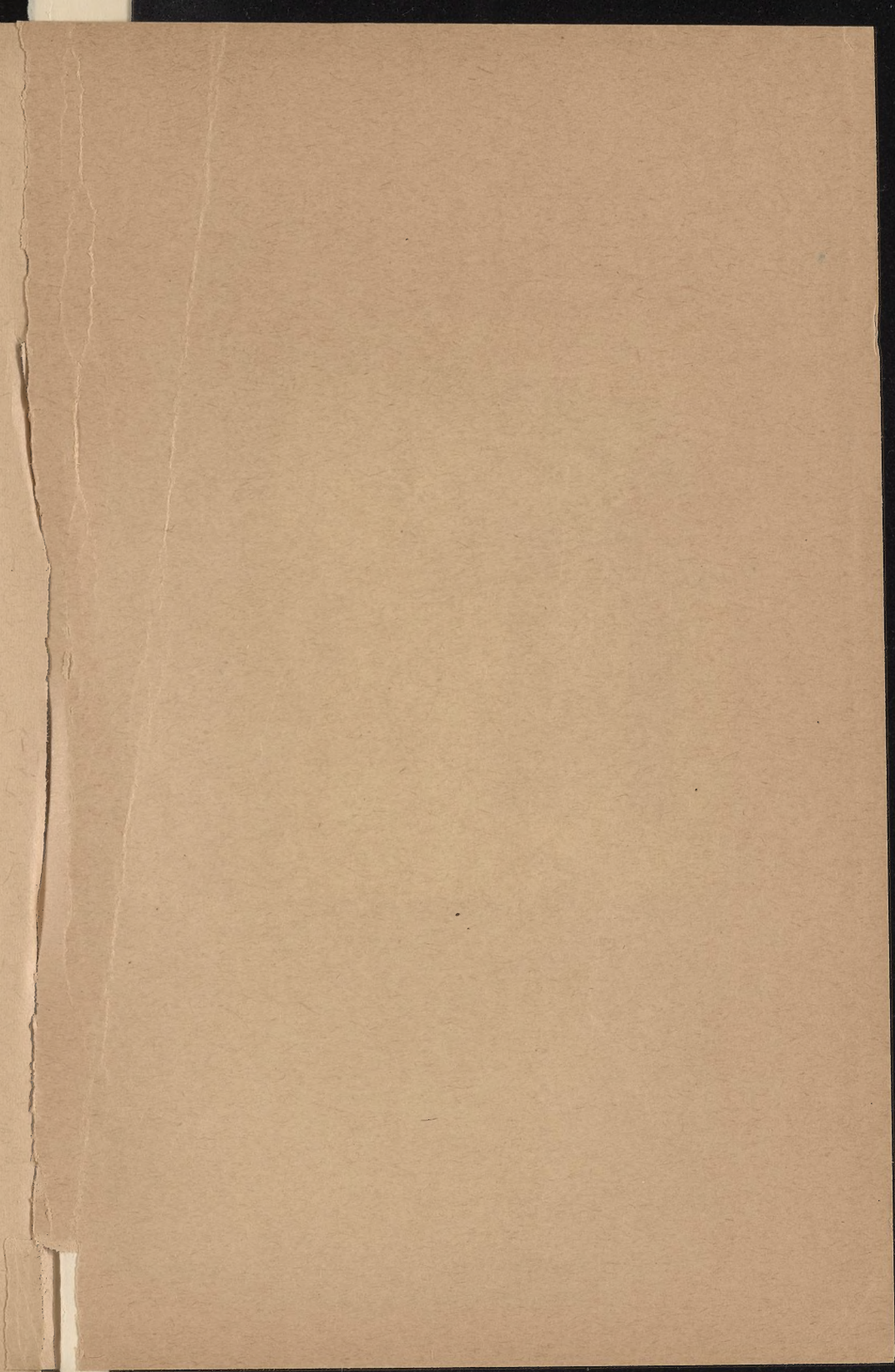
والدولة الاسماعيلية بمصر

٥٥٢٥ - ٥٦٧٠ هـ

الطبعة الاولى

مطبعة الاتحاد

١٩٦٢ - ١٣٨١ هـ



ميشيل لبار

مجاز في التاريخ

دبلوم في التربية

دبلوم عليا في الدراسات الاجتماعية

الاسماعيليون

والدولة الاسماعيلية بمصر

١٥٣٥هـ - ١٦٧٠هـ

الطبعة الاولى

مطبعة الاتحاد

١٩٦٢ - ١٣٨١

893.796

L II

50085M

الفهرس

المقدمة

الفصل الاول : الدعوة الاسماعيلية ومظاهرها :

أ - العقائدية

ب - السياسية

ج - الثقافية

الفصل الثاني : الدولة الاسماعيلية في مصيف (٥٣٥ - ٥٦٧)

أ - جبل البهرة مسرح الحوادث

ب - لحظة تاريخية

ج - دولة الاسماعيليين المستقلة

١ - عهد بني منقذ

٢ - الوطن الجديد

٣ - سيطرة الاسماعيليين

٤ - دور التأسيس

٥ - دور الذروة (عهد سنان راشد الدين)

٦ - القدائية واهميتها

٧ - قلاع الدعوة

٨ - دور الانحلال وسقوط الدولة

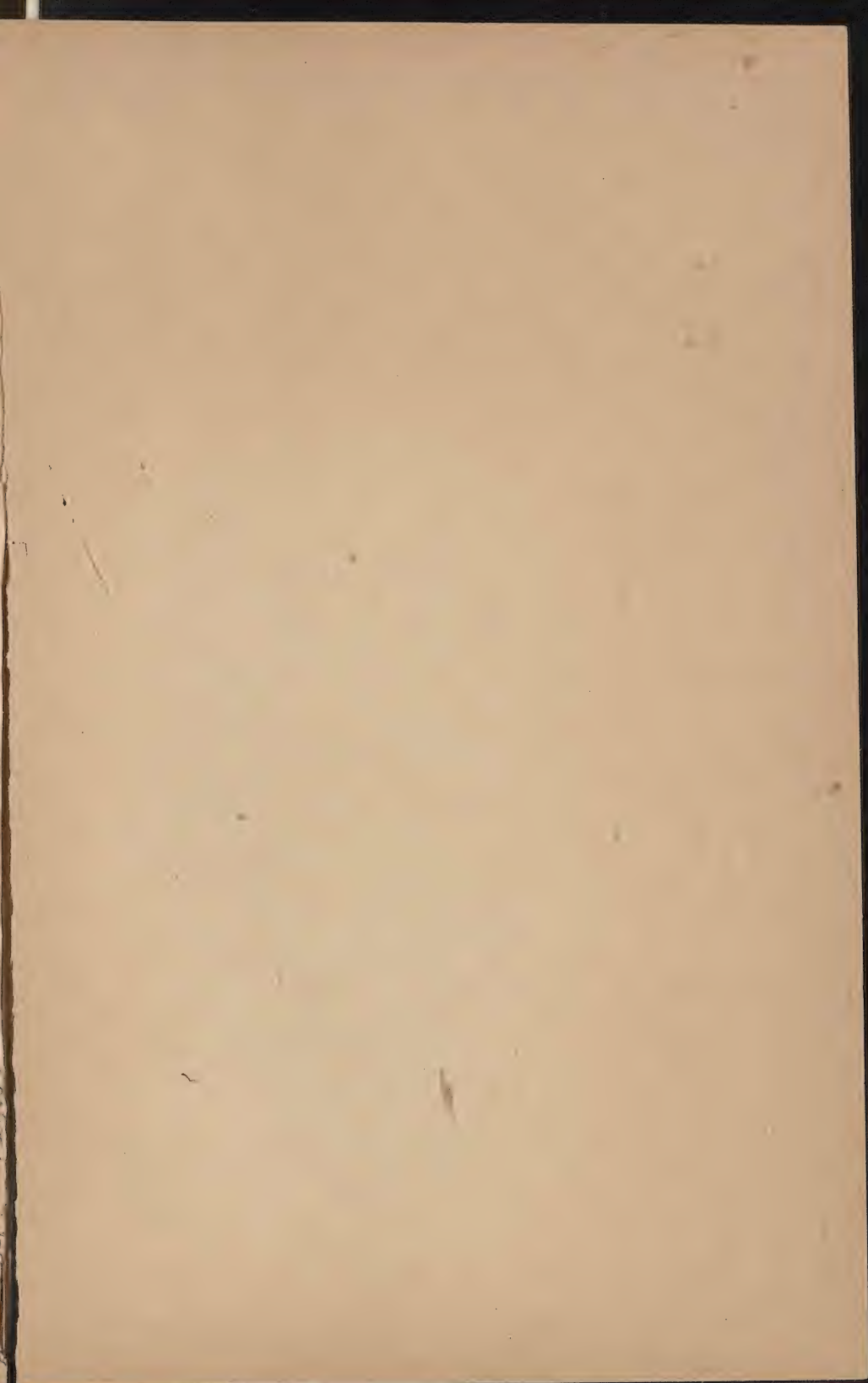
الفصل الثالث : السياسة الخارجية لدولة مصيف :

أ - الأهداف السياسية

ب - الاسماعيليون والدول الاسلامية (١) بني

منقذ، الاتابكة (٢) الايوبيون (سنان وصلاح الدين)

ج - الاسماعيليون والفرجة الصليبيون



المقدمة

ليكاد يصدق علينا ، معشر الشرقيين ، اننا نقدر الموت أكثر من الحياة ، ونحترم الاموات أكثر من الاحياء ، حتى لكأن الحياة أسيرة للممات ، ومزرعة للآخرة ، تسير في ركابها طائفة متعبدة . ولعل ذلك مبعث الاعتقاد بأننا لم نخرج على التاريخ ولم نخرج به ، وبقينا عبيداً لقيوده ، يصنعنا ولا يصنعه .

الحق أننا لاننكر ، أن من أبرز خصائصنا ، التعلق بالماضي ، فهو مهيوى الأفئدة ، ومبعث فخرنا واعتزازنا . وكلما أوغل الزمن اتلعنا الجياد صوب الماضي ، لندرسه ونبحثه ، وقد نغلو في ذلك فيطغى الماضي ، بكل ثقلة ، على الحاضر ، وتسد قبور الاموات سبل الاحياء ، كما يفعل الصينيون . ووجه الخطر في ذلك ان نجعل من التاريخ وسادة نغفو عليها كما تغفو الشاة على سكين الحزار ، دون أن نجعل منه مركزاً للوثبة الخلاقة . وخطر منه أن تبقى عيوننا الى الوراء مسمرة وقلوبنا مصمتة ، ونغفل عن مواجهة الحاضر وما يضطرب فيه من مشاكل تستدعي الفكر السليم والحل الجريء . ولا نغني بذلك ، الدعوة لدفن الماضي ، بغته وسمينه ، بل نريد أن ننظر للحياة عبر الزمان والمكان ، بأبصارنا لا بأبصار الآخرين ، فلا يجب ان نحمل الماضي بكل أوزاره فنمسي قبوراً تسعى ، دوداً يذب ، إنما احياء نبعث فينا من أرواح الأجداد قدراً يمكننا من متابعة النضال ومواصلة النجاح فنغدو ارواحهم دليلاً بصيراً لا عبئاً ثقيلاً .

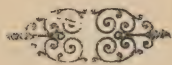
ومن مظاهر التقديس، الماضي والماضين ، أقبالنا على التاريخ ، دراسة
وبحسب وتأليفاً . لا تختلف في ذلك ، عن اسلافنا هواة التاريخ والعبر وما
يرتبط بذلك من شغف بالسياسة والسلطة . حتى قيل : العربي سياسي
بالفطرة ، ويجب ان يقال : العربي « تاريخي فهو سياسي » . فلا غرو اذا
شهدت الاكادس المقدسة ، من كتب التاريخ تغزو المكتبات ، من مطلع
حضارتنا ، ذات الرواء ، حتى فجر نهضتنا .

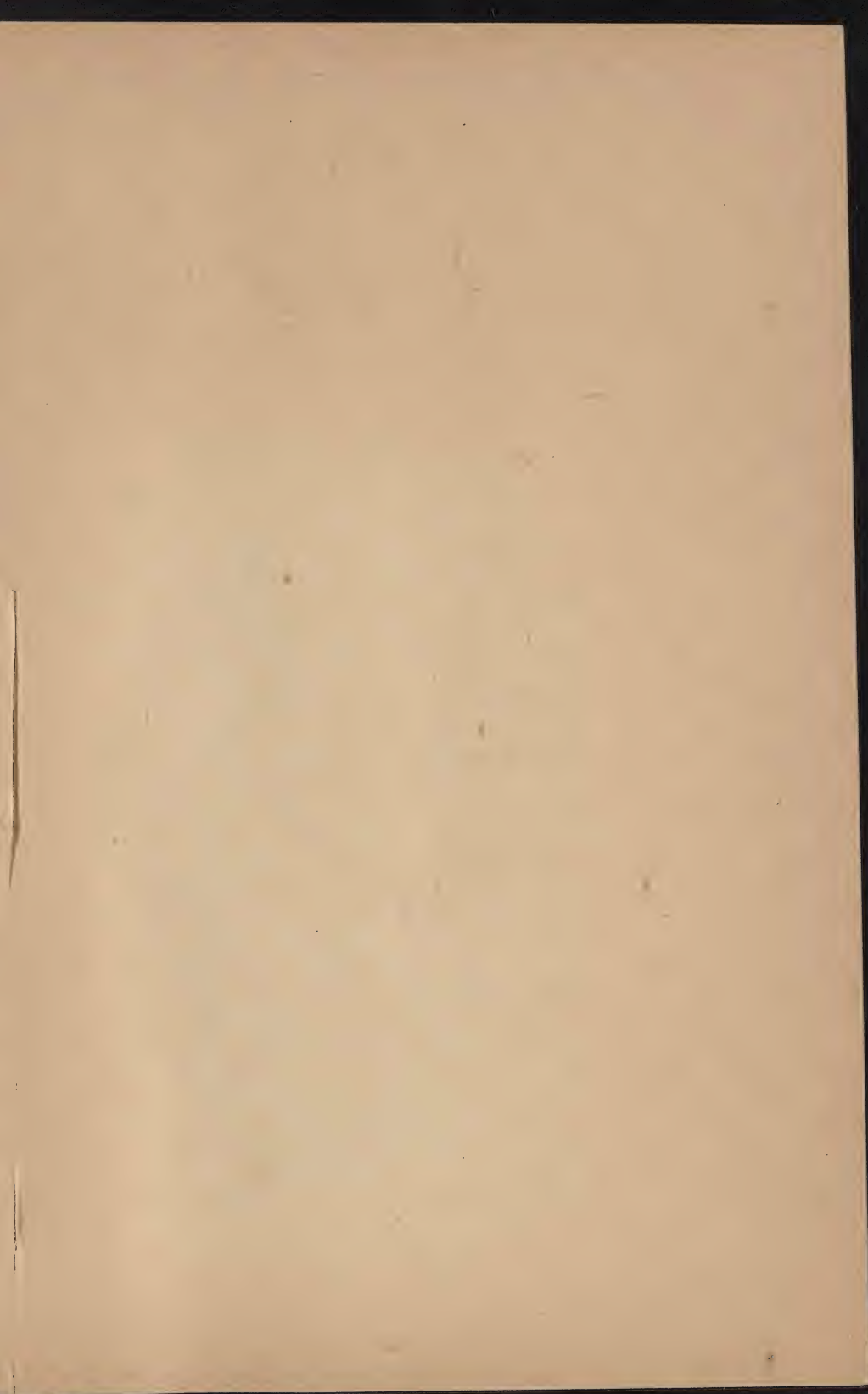
ولعلنا مما يدهشك ، كما دهشني ، الاتجد بين آلاف المجلدات التاريخية ،
على ما تحفل به من هيئ الأخبار ، شرقية كانت ام غربية ، الا النذر اليسير
من الاخبار الشنتية ، والاحكام المتسرة الجائرة ، عن دولة مصياف الاسماعيليه
وهنا تواجه الدارس عقبتان ، الاولى : خلسه المسحه العضويه ، على الاخبار
المبعثرة لبث الحياة والوحدة فيها ، والثانية : تحييص الحق من الباطل وما
اعسر ذلك ؟! وليست جدوة الموضوع ، وندرة الاخبار ، واختلاف الآراء
حول هذه الحركة والدولة بأقصى العقبات ، بل لعل أعصاها وأمرها ، محاولة
فهم التاريخ الوسيط ، على شاكلة مغايرة لتاريخنا الحديث ، في بواعثه واهدافه
فهو اسير اللاهوت ، وتاريخنا المعاصر تقوده المذاهب القومية والعقلية . ثم
هل يأمن من كان مثلي ، سقطه العثار ؟ فيما هو يلامس المقدسات العميقة !
ولذا هل تلومه اذا اختار الوقوف عند اعتاب الهيكل لا يريم ؟!

وما أغراني ، هو ما يغري الناس ، بارتباد الجحول . فكلنا نبحت عن
الجدة ، ولو خسرنا ، كجدنا العتيق آدم ، نعيم الجنة ، تجذبني في ذلك ،
وفوق ذلك ، ما في شيوخ الجبل (كسنان) من عبقرية عجيبة ، وكفاءة
نادرة ، فرضت سلطانها على كتاب الغرب والشرق ، وما في دولة مصياف

من حيوية ونشاط وقوة وما تحفل به من علم اخوان الصفا ، وفقه الفاطميين
وفلسفة اليونان والفرس والهندوس ، ولا ينالها ، مع ذلك شيء من اهتمام
الدارسين لذا فكل ما نطمع فيه هو توجية النظر الى قطعة من تاريخنا اسدت
خيراً كثيراً للوطن ، بجهادها ضد الغزو الصليبي ، وجهادها في ميدان الفكر
والعلم والفلسفة ، مما تشهد به مكتباتها الحافلة بكنوز الاجداد الموزعة في
مصياف والقدموس وغيرها .

لقد ظلت هذه الدويلة على صغرها ، طيبة عصور الانحطاط ، مرقد آمن
مرقد الفكر والابداع والشعر ، ومقراً أميناً لدراسة رسائل اخوان الصفا
وشرحها ، ومهبط شعر مزيد الحلي وراشد الدين سنان ، ومبعث حركة
ناشطة للدرس والتأليف والبحث . تحفى ذلك كله وراء سحنة القلاع الصارمة
والحصون المتجهممة ، وبريق حراب الفدائية الرهيبية ، وسلطنة شيوخ
الجبل المهيبة .





الفصل الاول

الدعوة الاجتماعية ومظاهرها

العقائدية والسياسية والثقافية

في القرن السابع للميلاد ، بسط الإسلام لواءه على بقاع واسعة من العالم فهوت في أحضان الفاتحين حضارات الأقدمين ، بما فيها من خصب وتنوع ، وما تحويه من عوامل الشيخوخة والهرم ، فدبت فيها أثر الفتوحات العربية حياة جديدة ، وسرى دم فتي جديد ، فبرزت على مسرح التاريخ حضارة عربية إسلامية واضحة القسما ، جليلة المعالم ، تسير فيها العروبة والإسلام جنباً الى جنب ، وتجتني معاً ثمار الجهاد الحضاري والسياسي وتحصد معاً أشواك العدوان والتحدي ، ينبع من الداخل أو ينقص من الخارج .

وبينما كانت الأمة العربية تخط مصيرها في مجرى الزمن ، وترسم مسيرها على هدي العروبة والإسلام ، نبت في أحشائها عدد هائل من الفرق الدينية والفلسفية ، لعبت دوراً كبيراً في حضارتنا ، وتركت أثراً عميقاً في حياتنا وخلفت إرثاً جليلاً في مجال الفكر الخي ، والأدب الخالد .

وكانت الحضارة العربية ، دفقاً ثراً مشمراً ، رضع الخصب والنماء من

روافد فياضة تجمدت إليها من تراث الماضي ، وروح الإسلام ، وروعة التفاعل بين هذين العاملين . ذلك التفاعل الذي تبلورت بنتيجة المذاهب والفرق المختلفة في تاريخنا ، حتى إذا مالت كفة القدر ، وحلت عصور الانحطاط ، وذهبت السيادة العربية ، انحدرت الفرق إلى الجدل العقيم واجترار الاحلام .

لقد أطفأت النكبات السياسية والاجتماعية شعلة الفكر المبدع ، وأخمد الاضطهاد روح الخلق فانطوت الاجداد وصوحت ثرات الحضارة العربية .

فما هو مركز الحركة الإسماعيلية بين الفرق والحركات ؟ وما هي ظروف نشأتها ؟ .

أ - الحركة العقائدية

١ - قيمتها : كانت الدعوة الإسماعيلية أبعد الحركات التي ظهرت أثراً وأشدّها إيغالاً في عالم الفكر والفلسفة ، وأكثرها عنفاً وتطرفاً في دنيا السياسة ، وأعمقها أثراً في تاريخ الحضارة العربية ، وأشدّها حيوية ومقاومة وتحدياً لقوى العالم المخالف لها . فقد بزغت على مقربة من عاصمة العباسيين وحاولت عبثاً إبتلاع الحضارة العباسية فتسلحت ضد الخلافة العباسية ، بسلاح العقيدة الجامعة العميقة ، وجهزت جيش الأنصار لتقيم على أنقاض الخلافة العباسية دولة إسماعيلية ، وإذا تعجز عن ذلك في بغداد تسري سرايا الشعاع في أوصال العالم العربي ، وتقتطع من جسد الخلافة العباسية ، معظم بقاع الأمة العربية غربي العراق ، وتجعل من العرب في جزيرتهم ، ومغربهم وفي جنوب سورية قوام دولتها ، ولب حضارتها ، وحملة لواء دعوتها ، ثم

تتولى بالعرب الدفاع عن الأرض العربية ضد الغزوات الصليبية ، في الوقت الذي إنحدرت فيه خلافة بغداد إلى فوضى الصراع السياسي والخضوع للغزاة الأجانب ، تاركة عبء الدفاع عن بلاد العرب لسيوف المصريين والسوريين بقيادة الدولة الفاطمية . ولكن هذه الدولة ، بصيها من الإخلال في أواخر أيامها ومن الوهن والضعف ما يجعلها عاجزة عن دفع الخصم العنيد ، فتفسح المجال لقوة الأيوبيين الناشئة ، ولقوة دولة مصياف الإسماعيلية ورثة الدول الإسماعيلية ، في عقيدتها وسياستها ودفاعها عن أرض العرب .

ولم يقتصر أثر الحركة الإسماعيلية على خلق الدول . كالدولة الفاطمية والقرمطية بل تركت عقيدة جامعة : عميقة الجذور ، متطورة الفروع ، ثورية المنزع

وخلفت تراثاً فكرياً ومذهبياً وفلسفياً ضخماً ، عجزت عن مثله بقية الحركات . ومن ينسى في هذا المجال العمل الضخم الذي أنجزه « إخوان الصفا وخلان الوفا » ؟ ألم نصل بعد إلى إدراك قيمة هذه الحركة بين الحركات السياسية والدينية ؟ !

إنه لمن العسير في هذه العجالة : إيفاء هذه الحركة حقها من البحث وبيان ما تركته من أثر في حضارتنا ، وحسبنا الإشارة دون الإبانة والتلميح دون التصريح ، ولكي نكون على بينة من الأمر يجب أن نرافق هذه الدعوة ، منذ نشوئها فنجتلي ظروفها التي نبعت منها ، ونواكب تطورها وهي تضم الأفكار وتصر العقائد ، وتقيم الدول .

٢ - ظروفها : عندما اندفع العرب بالإسلام إلى أعماق العالم المتحضر

القديم إندحرت أمام قوة الدين الجديد وحيوته، المذاهب القديمة، وتراجعت أمام التحالف العربي الإسلامي الوثيق، القوي السياسة، في العراق وسورية وغيرها من البقاع، وبقيت الحركات الدينية والمذاهب المقهورة خامدة خاملة تجاه التحالف العربي الإسلامي في عهد الأمويين، لتعود للنشاط والعمل عند إنقسام هذا التحالف في عهد العباسيين.

لقد ذكرنا سابقاً أن تاريخنا كله وليد التفاعل بين الإسلام والحضارات السابقة وما نتج عن هذا التفاعل. من تيارات فكرية وحركات سياسية وثقافية. وتحت جناح الخلافة العباسية، وفي سواد العراق، في الكوفة مركز الدعوة العباسية والشيعة سابقاً، ظهرت الحركة الإسماعيلية، وإنتشرت في الأرجاء. وكانت دائمة الضم للمذاهب والعقائد، تتطور حسب الظروف والأحوال

وتتخذ شتى المظاهر والأسماء، وهي في حقيقة أمرها، وليدة ظروفها،

وربية العقائد القديمة المنسحرة، وقد إنتعشت في عهد العباسيين، ومدت برأسها إلى الأعلى، وساعدها على ذلك ضعف الخلافة العباسية وتقلص سلطانها وخيبة أمل الناس فيها لأنها لم تحقق السعادة المنشودة التي أملها أنصارها، بالإضافة لتدمير العناصر غير العربية من سيادة العرب والإسلام، وإنتشار الفلسفة اليونانية والشك، إلى جانب الجهل والحرافات في أوساط الناس علاوة على التفسخ الإجتماعي والصراع الطبقي بين الفقراء وجماهير الفلاحين

من جهة، وكبار التجار والملاكين من جهة ثانية.

وقد كانت الكوفة البوثة التي تجمعت فيها جميع الأسباب المذكورة،

وموطن التشيع وملتقى الأفكار والنحل ، ومنبع كل حركة معادية شنت على الأمويين في دمشق والعباسيين في بغداد ، وهذا ما يفسر لنا ظهور الحركة الإسماعيلية وبين دوافعها . ومع ذلك يصعب تحديد زمن ظهورها بالضبط ، وإن كانت نتيجة تضافر تيارات إجتماعية وفلسفية وإقتصادية معقدة ولقد رسمت هذه الحركة مثلها على ضوء واقع غريب متطرف يسوده الغلو والعنف ، وبغرقه البؤس والضياع والفوضى ، فلا غرو بعد ذلك إذا جاءت بأفكارها وعقائدها وحركاتها السياسية ، متطرفة عنيفة ، ثورية المنزع ، عميقة النظر ، فلسفية المنحى ، تجتذب إلى صفوفها صفوة المفكرين والفلاسفة كاخوان الصفا ، ويطلق من أجل ذلك على كل متفلسف بأنه إسماعيلي ، كما تقود جماهير البائسين والناقمين والمشردين ، في عالم متناقض مضطرب .

٣ - أفكارها وتنظيماتها : الإسماعيلية حركة متشعبة بدأت بتمازج

عدة فرق من الغلاة ولم تتخذ شكلاً واحداً ، ولا إقتصرت على اسم معين ، فكانت دائماً الضم لفرق جديدة ، دائماً التجزؤ إلى فرق متناحرة ، وقد استطاعت كما قال - لويس - أن توجه السخط الإجتماعي والديني في البلاد الإسلامية : بانحازها حق العلويين الشرعي في الحكم ، وسيلة للدعاية السياسية وبمزجها الداخلي لمبادئ من جميع الأديان والفلسفات . مع نزعة قوية لتحكيم العقل في مذهبها الديني ، وباستغلالها التذمر الإجتماعي والإقتصادي وتنظيماتها الدقيقة كجزء أساسي من فعاليتها . (١)

(١) شاكو مصطفى : في التاريخ العباسي . ص ١٨٨ .

ولقد أطلق على الحركة الإسماعيلية أسماء مختلفة منها الباطنية ، التعليمية
القرمطية ، الحشيشية ، وإن نسبت هذه الحركة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق
الإمام السابع فقد اختلفت الآراء حول شخصية منظم هذه الحركة ، فيزعم
بعض المستشرقين مثل برنارد لويس ، أن منظمها هو أبو الخطاب ، خلافاً
لأبي الإسماعيلين الذين يعتبرون أبا الخطاب زنديقاً مارقاً (١) .

لقد توفي الإمام إسماعيل قبل الإمام جعفر الصادق بعدة أعوام بعد أن التف
حوله جماعة من الاتباع والمريدين ، وألفوا فرقة خاصة جديدة انشقت عن
الفرقة الامامية ، في الامام السابع إسماعيل وكانت ترى أن الامام جعفر
الصادق قد نص بالإمامة إلى إسماعيل ، ولا يجوز التراجع عن هذا القرار ،
لأن النص لا يعود القهري ، وأن الإيلاء بالإمامة لموسى الكاظم لم يكن الا
ستراً على ولي الامر ؛ (محمد بن إسماعيل) (٢) بعد وفاة والده .

ويتفق المؤرخون أن وفاة إسماعيل في حياة والده جعفر سببت اضطراباً
عند الشيعة أجمعين مما أدى إلى تضارب الآراء ، ونشوء الفرقة الاسماعيلية
(السبعية) والامامية الاثني عشرية .

وينسب الدور الأكبر في تنظيم الدعوة لعبد الله بن ميمون القداح
ذي الشخصية الغامضة ، الذي اتخذ السامية في سورية مركزاً لنشر دعوته

(١) مصطفى غالب : تاريخ الدعوة الإسماعيلية . ص ٨٧ وشاكو

مصطفى ص : ١٨٩ .

(٢) مصطفى غالب ؛ تاريخ الدعوة ؛ ص ٥٦

في جميع الاقطار الاسلامية واعتمد على الحسين الاهوازي في بث الدعوة^(١) واقتفى أولاده أثره من بعده ، حتى نجح أحد الاسماعيليين ، وهو المهدي ، في تأسيس الخلافة الفاطمية في المغرب .

وهذا يخالف رأي المستشرق ايفانوف الذي ينفي أثر القداح في الدعوة الاسماعيلية ، ويرى أن أصل هذا الاعتقاد يعود لعجز الناس عن فهم التطور والعمل المجتمع للأجيال المتعاقبة كما يعود لرواية ابن رزام في القرن الرابع الهجري ، مناقضاً قول برنارد لويس الذي يرى أن ابن القداح تولى رئاسة الدعوة وتربية محمد بن اسماعيل بعد وفاة أبي الخطاب^(٢) .

وقد توسلت هذه الحركة بدعوتها الجديدة ، لنسف المجتمع من الجزور وبناء مجتمع جديد ، على ضوء مثلها وأفكارها ، واعتمدت على التنظيم الهائل لحافل الدعاة لتحقيق انتشار الافكار والمبادئ التي تنادي بها .

ولعل أروع ما في الحركة الاسماعيلية ، تنظيمها وأساليب دعايتها العجيبة التي تدل على إدراك عميق لنفسيات شعوب الشرق الأدنى وعلى فهم دقيق لمصادر التدمير عندهم . ولذا عنوا عناية كبيرة بترتيب دعائهم على درجات يربطها نظام دقيق نادر المثال ، واختيارهم من أقوى الشخصيات ، وتزويدهم بإرشادات تتفق وأحوال البيئة التي يتوجهون اليها ، وكان على رأس الدعوة حجة الامام ، والداعي الأكبر للدعوة ، وقد أسند منصب رئاسة الدعوة

(١) الدكتور شكوي فيصل : مجلة العربي العدد ١٦ لعام

١٣٤ ص ٩٦٠

(٢) شاكر مصطفى ؛ في التاريخ العباسي ص ١٩٠

في عهد الفاطميين الى موظف كبير أطلق عليه « داعي الدعاة » ويساعده في نشر الدعوة إثنا عشر نقيباً وعدد من النواب يبشهم في جميع الأنحاء تمهيداً للانقلاب السيامي . ومن أهم أعمال داعي الدعاة أخذ العهد على المريدين والاشراف على محاضرات مجالس الدعوة المخصصة لتعليم الناشئة على أصول المذهب الاسماعيلي ، وتخريج الدعاة لنشر مبادئ الدعوة ، وجمع الاموال التي يدفعها الاعوان ، وكان صلة الوصل بين الخليفة ودعاته في طول العالم الاسلامي وعرضه (١) .

ومهما تكن فرق الحركة الاسماعيلية من تنوع واختلاف ، فقد جمعتها مبادئ عامة كما يقول الشهرستاني ويؤيده الديلمي والبغدادى وابن الجوزي في ذلك ، وفحواها « ان لكل ظاهر باطناً ولكل تنزيل تأويل » .

ويرى كثير من المستشرقين أن الغرض من ذلك هو استخدام الكتب المقدسة لجميع الاديان لتحقيق غرضهم في جمع مختلف الطوائف تحت لوائهم للقيام بالثورة . وفهم الباطن وتأويل العلم من إختصاص الامام المعصوم وحده . فالشريعة إذاً هي معرفة الامام والاستنارة بعلمه الباطن الذي يتلقاه من النبي مباشرة (٢) .

ويظهر أن الاسماعيليين اكتفوا أول أمرهم بالقول بإمامة إسماعيل وابنه محمد ولكن نظرتهم تطورت فأصبحت شاملة ، يتضح فيها اطلاعهم على الاديان المختلفة ورغبتهم في جمع أنصارها تحت لوائهم ؛ فقسموا تاريخ البشرية

(١) - حسن ابراهيم حسن ج ٣ ص ٢٦٣

(٢) - شاكر مصطفى ج ٢ ص ١٩١

الى حلقات نبوة عددها تسع ، وكل نبي يخلفه أمه وآخر حلقة نبوة ، هي
دورة مجد بن إسماعيل وفيها أظهر لأول مرة علم الباطن ^(١) .

وقد تضمنت حلقات النبوة المشار اليها أنبياء المذاهب الأخرى في
بلاد الاسلام ، لدمج أنصارها في حركتهم (كأنبياء اليهود والنصارى) .
وأئمة الدعوة ، كل يؤمن أنصارها ، لا يكونون ظاهرين جميعاً بل يستتر
قسم منهم حسب الظروف ، وإذا كان الامام مستوراً فلا بد أن يكون
حجته ودعائه ظاهرين ليبشروا بدعوته .

ويرى المؤرخون المسلمون أن أصل هذه الافكار فارسي مزدكي خرمي
بابكي ، وينفي ذلك بعض المستشرقين (ماسينيون ، إيفانوف) ويؤكد
ماسينيون أن هذه الحركة تمثل نقطة الفكر الاسلامي على أثر اتصاله بالعلوم
اليونانية . والواقع أننا نميل الى التأكيد ، مع معظم المؤرخين الى تأثرها
بأفكار اليونان والفرس والفكر الاسلامي مع تمثل الظروف واستيعاء
الواقع معها .

ولنشر الدعوة وبث الافكار لجأ الدعوة لمخاطبة السامعين باللهجة
المناسبة التي تختلف باختلاف المذهب والدين والمستوى الثقافي ، واتبعوا
طريقة التنشيط المتدرج تبعاً لمبادئ نفسية فلسفية ، يصل الداعي بنهايتها
للسيطرة على المدعو وجذبه الى الدعوة والعمل لها باخلاص منقطع
النظير ^(٢) .

(١) شاكر مصطفى ج ٢ ص ١٩١

(٢) نفس المرجع ج ٢ ص ١٩٤

ب - الحركة السياسية

ب - « في بلاد الشرق كانت الأحزاب السياسية تظهر دائماً في صورة فرق دينية » (١) إذ كانت الحركة السياسية جزءاً لا يتجزأ من الحركة العقائدية ، والجدير بالذكر أن الحركات السياسية قاطبة ، في العصور الوسطى تذرعت بالدعوة الدينية لتأييد حقها في الحكم وكسب الانتصار ولإسباغ صفه الشرعية على أهدافها . وكثيراً ما سخرت الدول المبادئ الدينية في ذلك العصر لخدمة أهدافها السياسية ، كما فعل الصليبيون وغيرهم على السواء . وهذا ما يفسر إنحراف بعض الحركات عن مبادئها المثالية والدينية ، عندما تتسلم السلطة السياسية . وتسعى للمحافظة على حكمها بالاجراء المختلفة الوسائل المنافية لدعوتها الأصلية ، وهذا يدعم الرأي القائل أن المثل تتغير عند إصطدامها بصخور الواقع . وعلى ذلك خاضت الحركة الإسماعيلية جهاداً نظرياً بأسلا مكنها من النجاح في تأسيس عدد من الدول الهامة في تاريخنا ، دون أن تحيد عند مبدأ الغاية تبرر الوسطة ، في ظروف تحيا فيه الشعوب والدول على ما يشبه ذلك ، دون أن يتورع الحزم عن إفناء خصمه وتدمير أخيه الإنسان الموجود والتضحية به في سبيل خلق إنسان موعود ، وتمزيق المجتمع للوصول إلى مجتمع موهوم مزعوم .

وأهم ما تفرع عن الحركة الإسماعيلية من دول وحركات سياسية : الحركة القرمطية والخلافة الفاطمية ، والدولة الإسماعيلية في فارس ، والدولة الإسماعيلية في مضاف .

(١) دي بور تاوينغ الفلسفة في الاسلام ص ١٥٥ .

١ - الحركة القرمطية في سواد العراق والبحرين (٢٧٦ هـ - ٢٩٧ هـ)

كان من أثر تضيق الخلفاء العباسيين الخناق على الشيعة عامة ، أن عمد الإسماعيليون إلى الإختفاء ونشر دعوتهم طي الكتمان ، وفي بلاد بعيدة عن مركز الخلافة العباسية ليدرءوا عن أنفسهم ما أضمره العباسيون من حنق ونقمة ، حتى أن محمد بن اسماعيل فرّ إلى الري ومنها إلى دماوند ، حيث إستقر ببلدة سميت فيما بعد مجد آباد نسبة إليه وأخذ دعواتهم يحويون البلاد لجذب الأنصار إليهم (١) .

وقد اتخذ أئمة الإسماعيلية بلدة السامية في سورية مركزاً لنشر الدعوة وكانوا يبعثون من هذه البلدة بالدعاة إلى كافة الأقطار الإسلامية ، وكانوا يعمدون في هذا الدور ، وهو دور السر ، إلى نواب الأئمة ، بتنظيم الدعوة ونشرها .

ومن أبرز الدعاة في هذا الدور ، عبد الله بن ميمون القداح ، الذي بث أمهر الدعاة في البلاد الإسلامية ومهد بذلك لنشوء عدة دول إسماعيلية ، أقدمها الحركة القرمطية في سواد العراق ، تلك الحركة التي تزعمها حمدان قرمط وصهره عبدان ما بين (٢٧٦ - ٢٩٠ هـ) .

وليس من شأننا التعرض لدراسة هذه الحركة بالتفصيل ، وحسبنا الإشارة إلى مبلغ التطرف النظري والعملي الذي وصلت إليه هذه الحركة على يد حمدان قرمط ، ذلك التطرف الذي انتهى إلى رفع جميع القيود وتحرير الناس من التبعات والمسؤوليات الاجتماعية المألوفة ، ومخالفة العقائد

(١) الدكتور حسن ابراهيم حسن (تاريخ الاسلام) ج ٣ ص ٣٢٢

والأفكار السائدة» وقد انقلبت الفلسفة على أيدي هؤلاء المؤسسين للجمعيات السرية الى احلام سياسية وكانت هذه الجماعات ترمي الى التغلب والوصول الى السلطة السياسية . وفي سبيل هذه الغاية لم تجد حرجاً من التذرع بجميع الوسائل (١) حتى إننا لنسمع حمدان قرمط وهو يشرح مذهبه ، وكأننا نسمع فيلسوفاً أوروبياً اشتراكياً يبيح المحظورات ويدعو لمجتمع جديد قوامه المثل الجديدة . ان الحرمان دفعه لتخطي جميع القيم الاجتماعية . وقد اتخذ حمدان قرمط من (كلوازي) على مقربة من بغداد مقرآله ليرقب أحوال بغداد وليبقى على صلة بالإسماعيليين في سورية وإيران ، وانتشر مذهبه في سواد العراق ، بفضل الظروف السيئة والتخريب الشامل ، الذي تركته الحركة الزنجية ، إنتشاراً واسعاً شمل فئات من العرب والسواديين على السواء . أما حمدان قرمط فلعله كان نبطياً من سواد الكوفة وكان يميل الى الزهد ويظهر أنه كان « أكاراً بقاراً » ويصفه الديلمي بأنه كان داهية . ويعتقد « دوساسي » بأنه رجل طموح خصب القريجة أظهر حماساً عظيماً للدعوة . ويجب أن لا يغرب عن بالنا أن الظروف كانت عوناً له وفي صالحه . وكان لحمدان عدد كبير من الدعاة من بينهم ، عبدان رائد الحركة القرمطية في سوار العراق وذكرويه الذي تولى نشر الدعوة في بادية الشام . وابو سعيد الجنابي الذي كان له الفضل الأكبر في تأسيس دولة القرامطة في البحرين والاحساء .

وقد أظهر حمدان قرمط مقدرة فائقة في التنظيم ، فوضع على أتباعه

(١) دي بور . تاريخ الفلسفة في الاسلام ص ١٥٦

سلسلة من الضرائب فرضها بالتدريج، وأخيراً إنتهى إلى فرض نظام «الإلفة» الذي نراه أول مثل للاشتراكية في الإسلام (١) . وقد أسس حمدان لاتباعه «داراً للمجرة» وجعلها عاصمة لحر كته ومركزاً لتطبيق اشتراكيته المتطرفة التي تقوم ، كما يقول حمدان لصديقه حسين الأهوازي ، «أمرت أن أروي هذه القرية وأغني أهلها وأن أضع بيدهم ثروة أسيادهم» ليست هذه ثورة طبقية لهدم الطبقة الاقطاعية بمعاول الفلاحين ؟.

لم يقف حمدان عند هذا الحد في محاربة المستغلين وإثارة المستعبدين ، بل تجاوزها الى الأمور الدينية فهاجم الأديان جميعاً ، وقال لأصحابه «ان الجنة في هذه الدنيا» وأن الأنبياء أحيوا الزعامة على العامة واستعبدهم بشرائهم (٢) .

ومضى بعد ذلك حمدان في تنظيم دولته الاشتراكية على أسس عجيبة تماثل بعض الدول في عصرنا هذا ، وتعتمد على ما يقدمه الفرد من جهد وعمل لنيل المركز اللائق به في الجماعة وأخذ حاجته من الدولة التي تشرف على تنظيم كل شيء ، وتوزع الثروة بين الجميع «من كل جهده ولكل حاجته» . ولكن هذا النظام لم يدم طويلاً بعد الانقسام الذي حصل بين مركز الدعوة في السلمية ، وحمدان في سواد العراق ، اذ يختفي حمدان تاركاً العراق ليرود ارضاً أبعد عن جيش الخلافة ، وتزاحم الفرق ، ويقتل عبدان (٣) .

(١) شاكر مصطفى ، في التاريخ العباسي ج ٢ ص ١٩٦

(٢) شاكر مصطفى ، في التاريخ العباسي ج ٢ ص ٢٠١

(٣) من مقال الدكتور فيصل المشار اليه .

وتتلاشى دولتهم في السواد ، بعد أن توالى حملات العباسيين واشتد ضغطهم
لتظهر في البحرين ، ومن هناك عادت الحركة القرمطية تهدد بغداد وتروع
العباسيين طيلة عشرات من الأعوام .

وإذا كان حظ القرامطة من الشام والعراق هذه السنوات القليلة ،
وهذا السلطان القلق فقد كان حظهم أقوى في الحركة التي قادها أبو سعيد
الجنابي في البحرين والاحساء ، واليمن حيث استطاعوا إقامة مجتمع
وتكوين دولة حافظت على وجودها على تتابع السنين في القرن الرابع
الهجري (١) كما نازعوا القاهرة فترة طويلة من الزمن ، وانشبوا محالبا
القتل والتخريب في نواحي الشام الجنوبية ، واستباحوا بعض
المقدسات الاسلامية ، ليعودوا في فترات أخرى لتتقرب من الفواطم
والاعتراف بهم ومناوأة الخلافة العباسية في بغداد (٢)

« فمن مبلغ أهل العراق رسالة . بأني نا المارهبوب في البدو الحضر »

كما قال زعيم القرامطة . وصفوة القول إن القرامطة في دور الستر قد أقلقوا
العباسيين ، واشعلوا الفتن في سواد العراق وبادية السماوة وفي أكثر أرجاء
سورية وهزوا أسس الخلافة العباسية وهددوها بالسقوط فقال زعيمهم
مهدياً أهل بغداد :

« فيأويلهم من وقعة بعد وقعة يساقون سوق الشاة للذبح والبقر »

٢ - خلافة الفاطمية (٢٩٦ هـ - ٥٦٧ هـ)

نشأت الحركة الفاطمية في الشام نشوء الدولة الاموية والعباسية ، ونمت

(١) الدكتور فيصل نفس المقال

(٢) الدكتور حسن ابراهيم (تاريخ الاسلام السياسي) ج ٣ ص ٣٢٩

في مصر والمغرب وماتت هناك (١) ، وقد مهد لظهور هذه الدولة جيش الدعاة الذي نوافذ باستمرار من السامية . التي لعبت مع الكوفة دوراً أكبر بكثير مما تبيحه حدودها ، وكانت كالقلب النابض تبعث بأمواج الدعاة الى الاطراف ، فتقوم الدول الاسماعيلية المتعددة وتبلغ أوجها بظهور الدولة الفاطمية في القاهرة ، تلك الدولة التي تمكنت من توسيع رقعتها وبسط سلطانها على معظم أجزاء الوطن العربي وأرغمت الخلافة العباسية على الانكماش في العراق وفارس .

وبينا كانت الخلافة العباسية تغرق في الفوضى وتنتقل من حضن فاتح الى حضن فاتح وتسير في ركاب الاجانب من ديلم وترك ، وتنصرف للمنازعات الفردية ، وتولي وجهها شطر المشرق ، كانت الخلافة الفاطمية في القاهرة تعيش في اليمن وسورية ومصر على تراث العرب ، وتعتمد على سيوفهم في الدفاع عن أرض الوطن ضد البيزنطيين ، طيلة عشرات الاعوام ثم ضد الصليبيين فيما بعد مما جعل بعض الشعراء يقول عن خليفة بغداد :

« عجبت لمدي الآفاق ملكاً وغايتة ببغداد الركود »
ومن مستخلف بالهون يرضى يذاد عن الحياض ولا يذود
« وأعجب منها سيف بمصر تقام له بسنجار الحدود »

والجدير بالذكر أن الخلافة الفاطمية الاسماعيلية شجعت العلوم والفنون ونشرت على الربوع لواء الأمن والسلام والرخاء ، وخلفت آثاراً جليلة في الأدب والفن والعلم ، وخاضت نزاعاً سياسياً مرّاً مع الامويين في المغرب

(١) كودلي اخطط ج ١ ص ٢٢٨

والعباسيين في المشرق ، كتب لها النصر أحياناً ، وكتب عليها الخزلات ، أحياناً أخرى . ولقد كان العداء بين بني أمية وبني هاشم قديماً باقياً الأثر في الجاهلية والاسلام وقد تطور بعد الاسلام فتلبث بالصبغة الدينية والمذهبية . وإذا تراجع الامويون في نهاية الصراع وانسحبوا الى الاندلس ، فإن الهاشمين (من فاطميين وعباسيين) تقاسموا العالم الاسلامي قروناً كثيرة ، دون أن ينسى الامويون شئ الهجمات البحرية والبرية على الحناح الغربي للدولة الفاطمية ، واقتطاع بعض أجزائها . أما نزاع أبناء العمومة في المشرق فقد كان أشد وطأة وأبعد أثراً ، لأن استيلاء الفاطميين على قلب العالم العربي من جهة ، واعتمادهم على الحق الشرعي والدعوة المنظمة من جهة أخرى ، دفع بالعباسيين لمناوأة الخلافة الفاطمية بمختلف الوسائل والدعايات المغرضة ، ومع ذلك ، فقد صادفت الدعوة الفاطمية النشطة نجاحاً باهراً توج باحتلال بغداد نفسها على يد البساسيري الفاطمي (٤٥٠ هـ) تشد أزره الجيوش العربية من البادية السورية وبلاد الشام ، ويؤيده المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي الداعية الذكي الواسع النشاط والخيلة . وخطب للمستنصر الفاطمي في جوامع بغداد ، وأنشأ بعضهم يقول :

يا بني العباسي صدّوا ملك الارض معدّ

ملككم كان معاراً والعواري تستردّ

على أن زعزعة الحالة المالية بمصر ، وعودة الشيرازي ، وقيام المنافسة بين العرب والأتراك ، في جيش البساسيري ، واعتماد العباسيين على السلاجقة ساعد على واد الحركة الفاطمية في بغداد بعد عام واحد .

وبدأت الدولة الفاطمية بعد ذلك تهرم ، ويطبق عليها الخصوم من

الشرق والغرب والشمال ، بعد أن عجزت عن رد التحدي الغربي الصليبي ، لتفسح المجال لدولة فتيحة يؤسسها صلاح الدين ، تاركة أعباء حمل الدعوة الاسماعيلية لدولة ألمات ، ودولة مصياف .

٣ - الدولة الاسماعيلية في شمال فارس (٤٨٣ هـ - ٦٥٤ هـ)

لقي المذهب الاسماعيلي انتشاراً واسعاً في القرن الثالث للهجرة وقد ظهرت الدول الدول الاسماعيلية في معظم أرجاء الوطن العربي ، بما في ذلك الشام والجزيرة والمغرب ، وامتدت مساعي الدعاة حتى بلغت أقاصي بلاد المغرب ، وكانت مدارس الدعوة الاسماعيلية في القاهرة تبعث بالأعداد الوفيرة من الدعاة الى كل مكان ، وإلى إيران خاصة ، وكان لهم مركز هام بإيران يرأسه داعي الدعاة ، وكان الدعاة يتميزون بنشاط خارق ، وقدرة عجيبة على التنظيم .

وقد ظلت بلاد الشام والشرق تتلقى أيضاً مستمراً من الدعاة تبعث بهم الخلافة الفاطمية حتى وفاة الخليفة المستنصر (٤٨٧ هـ) إذ انقسمت الاسماعيلية الى فرقتين ، الفرقة الأولى ظلت على إخلاصها للولد الأكبر للخليفة المستنصر نزار ، وعرفت بالنزارية ، وتزعمها الحسن بن الصباح . وانتشر أتباعها في بلاد فارس والعراق والشام . أما الفرقة الثانية فانحازت للخليفة المستعلي أخي نزار وانتشرت في اليمن ومصر ثم في الهند حيث عرفت بـ (البهرة) (١) .

وقد تفرعت دولة مصياف عن الحركة الصبّاحية ولذا نجد الحديث عن منظم هذه الحركة الجديدة من الضرورة بمكان .

(١) مصطفى غالب تاريخ الدعوة ، ص ١٨٢

ولد الحسن بن الصباح الحميرى مؤسس الحركة سنة ٤٣٢ هـ وتثقف في مدينة نيسابور مع الشاعر النابغ عمر الحيام ، والوزير نظام الملك فتواثقت عرى الصداقة بين الثلاثة وتعاهدوا على اقتسام السعادة في مستقبل الايام . ثم جرفهم تيار الحياة ومضى كل منهم في سبيله ، يسعى في مناكب الارض . وبلغ كل منهم فروة النسر المحلق ، وعرف الصرخة الدامية ، وجرد ذيل المجد ولكن نهاية كل فارس اختلفت بعد ذلك ، ورفاق المدرسة اختلفوا على اقتسام السعادة فمزق الحسن قلب الوزير المتعجرف نظام الملك .

أما الحسن بن الصباح فقد عكف على دراسة العلوم الفلسفية والرياضيات ودرس المذهب الاسماعيلي على شيخ الجبل عبد الملك بن عطاش فأظهر نبوغاً كبيراً وتقوفاً عظيماً أدهش أساتذته ومربيه (١) فأوفد الى القاهرة بزي تاجر حوالي سنة (٤٨٠ هـ) وقد استقبل فيها بمنتهى الحفاوة وتلقاه داعي الدعاة (القزويني) وكبار رجال الدلة الفاطمية على الحدود ورحب به الخليفة المستنصر وأفرد له منزلاً خاصاً وجعل له مجلساً للدعوة بما يدل على أنه كان أحد أقطاب الدعوة المرموقين في إيران ، وعلى صلة سابقة قوية بالخلافة الفاطمية بالقاهرة (٢)

لبث الحسن في مصر ثمانية عشر شهراً تعرف فيما على دقائق الدعوة وأساليبها ولكن هذا الرجل الظموح مالمبث أن اصطدم بالوزير النافذ الكلمة بدر الجمال ودب الجفاء بسبب طموح الرجلين ، ولما ثارت مسألة ولاية العهد واختار المستنصر ولده نزاراً أيده الحسن ورفض ذلك بدر وأيد

(١) مصطفى غالب ، تاريخ الدعوة ص ١٩٠

(٢) شاكر مصطفى ، ج ٢ ص ٤١٥

حفيدة المستعلي ونشأ بسبب ذلك نزاع انقسمت فيه الدعوة الى نزارية
شرقية وفاطمية غربية مستعلية .

وانتهى الخلاف باعتقال الحسن في دمياط فهرب منها في سفينة الى الشام
حيث حل في حلب ثم في بغداد وأصبحان . وكان يبت دعوته على طول
الطريق مستغلاً عدة عوامل : منها تنازع السلاجقة ، واصطراع العرب
والفرس والترك ، وانقسام السكان بين الشيعة والسنة ، وتناحر الطبقات في
مجتمع فارس الاقطاعي مع تسرب الفساد والتفصح الى الحياة الاجتماعية ،
كل ذلك قد أفاد منه الحسن بذكاء خارق ، واتجه في دعوته الى الطبقات
المحرومة المضطهدة الجاهلة مبتعداً عن طبقة العلماء ، مخالفاً بذلك سنة
الاسماعيلية في الاعتماد على العلماء واقتفى بعد ذلك أثر سلفه عبد الملك بن
عطاش ، فاتجه بعنايته الى قلعة (الموت) (١) واستطاع بعد أن بث دعوته
بين ساكنيها ، أن يثب عليها ويخرج عامل السلاجقة (٤٨٣ هـ) منها وبدأت
بذلك مرحلة جديدة في حياة الدعوة النزارية الاسماعيلية ، إذ صار لها
مركز منيع وحصن حصين ، ومدرسة لتعليم الدعوة ونشر مبادئها في
الشرق والغرب معاً .

ولم يتمكن نظام الملك ، ولا ساداته السلاجقة ، من استرجاع هذه
القلعة ، برغم الحصار العنيف ، ولا استطاعوا بما اقترفوه من جرائم بشعة ضد
الاسماعيليين أن يرغموا سيد القلعة على تسليمها ، وكل ما نتج عن ذلك هو سقوط
نظام الملك قتيلاً بيد فتي اسمايلي بعث به الحسن ، وكان قتل نظام الملك أول

(١) الموت : قلعة في جنوب بحر قزوين بناها ملك شاه ، ومعناها :

(عش العقاب) .

اغتيال سياسي هام قام به الإسماعيليون وكان مطلع عهد جديد في العمل
السياسي يستند الى الارهاب السري مع القتال العلني ، والدعوة الفكرية .
وهذا يعني أن الحسن وضع خطة جديدة في الحياة الدولية ، وانحرف بذلك
عن الدعوة الفاطمية ، ولكن هذا لا ينفي أن مقاومة دولة كبرى وخلافة
واسعة الاطراف ، تشن الهجوم تلو الهجوم على حصون الدعوة ، وتسعى
لإفناء الحركة الاسماعيلية يستلزم اللجوء لوسيلة رهيبة يستعاض فيها بالقتل
القليل عن الجيش الكبير ، وإذا لم يتمكن الحسن من تجنيد ذلك الجيش فقد
لجأ لهذا السلاح المرعب الا وهو الحركة الفدائية النادرة المثال في الشجاعة
والاخلاص .

وقد تمكن الحسن بواسطة دعائه من جهة ، وفدائيته من جهة اخرى ان
يلقي الرعب في قلوب حكام العصر ، ويزرع الموت الزؤام من قلعة «ألموت»
في جميع بلاد الخلافة العباسية ، وفي قلب من تسول له نفسه بالعدوان على
الاسماعيليين . ومع أنه لم ينفصل عن القاهرة الا بعد وفاة المستنصر ، فقد
نظم الدعوة منذ احتل ألموت اومضى بعزيمة خارقة امتدت منه الى اتساعه
الشجعان ففرض هيئته ونفوذته على عصره بحفنة من اشداء الرجال ، كانوا
لمدة قريبة «لاحين وعبيداً مضطهدين» .

وكان الحسن رجلاً فذاً شهماً في كل شيء . يحسن السياسة ، ومن أكبر
دهاة التاريخ في رسم الخطط وتنفيذ الافكار . بل يمكن أن يحسب الرجال
الذين يوازنون الحسن في التنظيم وبلوغ الغايات وتنفيذ المثل على عدد الاصابع .
ولقد أسهم الحسن بنصيب كبير في تأليف الكتب المذهبية وتشقيف

جماعته على مبادئه الفلسفية ، دون أن يميل حياته الخاصة ، التي اتصفت بالقداسة والطهارة ، والتقوى ، حتى أنه أعدم أحد أولاده ، عندما بلغه أنه شرب الخمر مرة ... الخ .

وكان نقي السيرة مستقيم الطوية لم يتورع عن إقامة الحد على ابنه الثاني وقتله بتهمة الاشتراك في قتل أحد الدعاة المخلصين . ومهما تكن آراء (الشهرستاني) ، (والغزالي) في الحسن بن الصباح فان (فون هامر) يؤكد أن الحسن تكشف عن خبرة واسعة في فهم الحياة البشرية ، وعلم أن الاتحاد يقوض الدول والعروش ، ولكنه لايساعد على بنائها ، ولذا

اعتمد الحسن على التدين المطلق ، والتنظيم الدقيق ، ورتب أصحابه على سبع درجات : تبدأ بداعي الدعاة وهو الحسن نفسه ، وتنتهي بالمستجيبين وهم عامة من دخل في المذهب . وأبعد هذه الفئات أثراً ، جماعة الفدائيين ، التي لم تتورع عن اغتيال خصوم الدعوة من المسلمين والصليبيين على السواء ، وتلقى الموت بعد ذلك بنفس راضية مطمئنة (١) .

ولقد أفادت الدعوة الاسماعيلية من الحسن بما قدمه من خدمات جليلة أن يحصى عددها طوال خمسة وثلاثين عاماً قضاها في التنظيم والجهاد ، ونشر الدعوة ، في فارس والعراق والشام .

وقد طال العمر بالحسن ، ورأى بعينه موت أهله وصحبه وكبار دعاة . وقد شابت القسوة طباعه في أيامه الأخيرة ، حتى قتل ولديه ، وربما كان سبب قتل الولدين خشية الحسن من دسائسهما ، وربما لم يجدهما أكفاء لخلافته في رئاسة الدعوة ، لذا ترك الأمر للأصلح من دعاة (كما يرى

(١) شاكر مصطفى ج ٢ ص ٤١٩ .

فون هامر) وإذا صح هذا الرأي وهو على الغالب صحيح ، لما نعرف من صرامة هذا الرجل في تطبيق مبادئه وإخلاصه العميق لدعوته ، فيمكن أن نعتبر الحسن من أنقى رجال التاريخ سيرة .

وقد أدى موت الحسن الى نتائج خطيرة ، في تاريخ طائفته ، أهمها تألب الخصوم عليها في سورية والعراق وفارس ، واعتماد هذه الطائفة على الاغتيالات المتكررة ، للدفاع عن وجودها المهدد بالفناء ، وانفصلت الحركة في سورية عن « أئوت » واستقلت بالعمل وبأدات للافادة من ظروف البلاد لأقامة دولة في مصيف .

أما خلفاء الحسن في أئوت فقد اتجهوا الى سياسة متعصبة ، شديدة أحيانا ، ومتذبذبة أحيانا أخرى ، وجعلوا همهم بنسء القلاع والحصون ، واغتيال أمراء السلاجقة ، وخلفاء بني العباس على السواء ومسح ذلك بقي الصراع بين خلافة بغداد ، ودولة القلاع في شمال فارس ، مدة تزيد على القرق تقطعت فيه الاعناق ، وتمزقت الصدور ، وتهدمت المدن والقلاع ، ولكن حبل الأجل قد امتد بالخصمين المتنازعين ، حتى برز من وراء الافق ، الفاتح البربري هو لاكو ، الذي اكتسح قلاع الاسماعيليين ، وخلافة بغداد ، اكتساح العاصفة . وانتهت بذلك مرحلة حاسمة في تاريخ العرب .

نفوذ الاسماعيليين في سورية بين (١٥٠ - ٥٥٠ هـ) .

منذ الايام الأولى لظهور التشيع العلوي في العالم العربي ، عرفت بلاد الشام ، بعض مبادئ الدعوة ، على يد نفر من الصحابة ، كأبي ذر الغفاري الذي نشر الدعوة لهلي ، وروّج له قبل نشوب الخلاف بين علي ومعاوية . ويقول العاملي : إن أبادر لما أخرج من دمشق ، بأمر من معاوية ، أقام في

جبل عامل ، فتشيع له أهله الى اليوم . ومنذ ذلك اليوم ، كانت الشام تمل
تارة للشيعة ، وتنقلب عليهم تارة أخرى ؛ حتى بلغ التشيع أوجه ، في عهد
أمراء حلب الحمدانيين ؛ وخلفاء القاهرة الفاطميين ؛ وحافظوا على تفوقهم
العددي حتى القرن السادس للهجرة «اذ يقول الرحالة ، ابن جبير ، في القرن
السادس» والشيعة في بلاد الشام أكثر من السنين ، وقد عموا البلاد بمذاهبهم
وهم فرق شتى ومنهم الاسماعيلية ، والنصيرية (١) .

أما الحركة الاسماعيلية المنشقة عن الحركة الشيعية فقد أصبح مركزها
في السامية في وسط الشام ، وقد جاء الاسماعيليون الى الشام ، أملأ بانتجاع
بقعة بعيدة عن ضغط الخلافة العباسية في بغداد ومراقبتها وسعيها وراء حشد
القوى الخائفة في الشام على النفوذ الاجنبي ، الذي تغلغل في بغداد على يد
العباسيين ؛ ولعل الاسماعيليين اتجهوا الى الشام بالذات ، لانتشار حركة
التشيع فيها ، ولوجود العناصر العربية الناقمة على العباسيين .

وبعد أن استقر بهم المقام في السامية ، كانت عيونهم على بغداد ، عاصمة
الخلافة وعقولهم في المقاطعات النائية ، والأطراف القصية . ولذا شرع الدعاة ،
يتنألون في رحاب العالم الاسلامي ، يبشرون بدعوة جديدة ، تناسب كل
فرد ، وجماعة ، لأنها تستغرق الاديان والمذاهب جميعاً وتخطب كل فئة ،
بلسانها .

وفي هذه الرحلة ، تبدأ الاسماعيلية ، عهداً جديداً ، من التحدي
الصارم ، للخلافة العباسية . وتشن عليها هجوماً محكم الاطراف ، قوامه
عقيدة فلسفية جامعة ، ماضية العزيمة ، تسري لدى الفئات ، التي فشلت

(١) كرد علي . المخطوط ج ١ ص ٢٦٣ .

في الوصول الى السعادة مريان النسخ الجديد ، في النبت الدابل . فتحملها على الثورة ، تلو الثورة ، وتقدم لها المثل الروحية ، والغذاء النفسي الحيي بعد موات الآمال . وتبعث في الجماهير المحرومة ، طباً قديساً ، تغذية المثل والافكار ، المنبثقة من مبادي نفسية عميقة ، وتجارب واقعية قاسية ، ودعوة جامعة بين نعم الحياة ، وما وراء الحياة ، في عالم يموج بالفوضى والإختلال والضياع .

وظلت السامية ، وفية لرسالتها ، تقف متحفزة لغزو بغداد ، بما تقدمه من فيض متصل من خيرة الدعاة ، وخطير المبادي . حتى انتفض سواد الكوفة ، حيث هدد فيه القرامطة الاسماعيليون ، خلافة بغداد ، وهزوا أركانها الواهية . فتنبه العباسيون الى مبعث الخطر في السامية ، والسواد معاً فنشب النزاع الدامي عدة أعوام ، أثخن فيه الاسماعيليون ، في جسم الخلافة العباسية . ولكن الظروف ساعدت هذه الخلافة على النجاح ، بعد الانشقاق ، الذي حصل بين السامية والسواد ، ذلك الانشقاق الذي أودى بحياة حمدان قرمط من جهة ، والتخلي عن السامية كمرکز للدعوة من جهة أخرى . سيما وأن الاسماعيلية ، قد انتشرت في المغرب ، على يد أبي عبيد الله الشيعي ، ومنذ ذلك اليوم تبدأ الخلافة الفاطمية بالانقضاء ، على خلافة بغداد ، بعد أن خرجت من السامية مهاجرة لتعود إليها قوية ، عزيزة ، تحمي العقيدة جيوش جرارة ، وغابات من الحراب المسنونة . فتبدأ مرحلة جديدة من النفوذ الاسماعيلي في سورية الجنوبية خاصة ، والشام عامة ويمضي القرن الرابع ويتلوه القرن الخامس للهجرة ، وسورية تعيش مع مصر والحجاز واليمن ، تحت النفوذ الاسماعيلي الفاطمي . ثم تشهد المجازر والفوضى الداخلية

التي يزرعها السلاجقة الوافدون من الشرق ، والصليبيون الغزاة من الغرب
وترى الى النفوذ الاسماعيلى ، في نهاية القرن الخامس ، وهو يتقلص والى
ظل الدولة الفاطمية وهو ينسحب ، والى الشيخوخة وهي تزحف مسرعة
نحو خلافة الفاطميين ، بعد أن تألّبت على دولتهم قوى الغرب وشرق ، من
سورية ، والمغرب ، والبحر معاً . وتعاونت الدول المسيحية الغربية ،
والاسلامية الشرقية ، على نحو الخلافة الفاطمية المتداعية .

وعندما عجزت هذه الخلافة عن رد التحدي ، ودفع الغزو ، استسلمت
الصلاح الدين ، لمتولى توحيد الصف ، واحكام خط القتال في الجبهة السورية
المصرية ، ضد القوى الشرقية والغربية . وكانت الاسماعيلية قد انقسمت الى
نزارية ، يتزعمها الحسن بن الصباح في سورية والعراق وفارس ، ومستعلية
في مصر واليمن وقد بقيت العلاقات السائدة بين الطرفين على سابق عهدهما
من الود والصفاء ، ولم يحدث ما ينأى عن هذه القاعدة الا ما تسرب الى
هذه العلاقات من وهن ، وضعف ، يتماشى مع انحلال القوى الخلافة في
مركز الخلافة الفاطمية ، يقابله نشاط ، وحيوية دافقة ، قصيرة الأجل ،
تبعث من قلعة « الموت » التي تولت ، بعد وفاة المستنصر (٤٨٩ هـ) نشر
الدعوة وتوجيه الدعوة ، وانتهاز الفرص السياسية ، لاستعادة مركز الخلافة
الفاطمية وعزها الآفل . وبالرغم من جهود الحسن بن الصباح ، ودعائه في
سورية ، بدأت الحركة السياسية الاسماعيلية ، تحتمي بالقلع والحصون
وتنزل بالتدريج ، وتلجأ لختلف وسائل الدفاع ، عن النفس ، والمشروعة منها
وغير المشروعة على السواء . فتقوي نفوذها في حلب ، ثم في دمشق والبقاع

ثم ترحل الى منطقة مصيف لتقيم آخر دولة لها في التاريخ .

كانت حلب ، من المراكز الهامة ، في تاريخ الحركة الاسماعيلية . فلم تخل منذ القرن الثاني للهجرة ، من دعاة ، يروجون للدعوة الاسماعيلية ، لاحلالها مكان خلافة بغداد . ومال الى الدعوة الفاطمية في عهد الخلافة خلق كثير في نواحي حلب ، بسمرين ، والجوز ، وجبل السماق ، وبني عليم ، وبزاعة ، والباب ، وأعزاز . كما انتشر المذهب الدرزي في هذه المنطقة انتشاراً واسعاً ، بيد أن الخلاف الذي نشأ في القاهرة حول الامام نزار ، وما نجم عن ذلك ، من انفضال الحسن بن الصباح ، في (الموت) وما بذله من نشاط خارق ، لبث دعوته في سورية ، والعراق ، وفارس . كل ذلك جعل الشام ترتبط هذه المرة بالشرق ، وتتلقى سيل الدعاة ، والهاربين ، من الاضطهاد العباسي والسلجوقي معاً . كما تلقت ذلك منذ ثلاثة قرون ، ولكن الامر اختلف الآن ؛ إذ احتضنت الشام الدعوة ، وبلغتها ، وأنشأت بها الدول منذ ثلاثة قرون أما الآن ، فقد أصبحت ملاذاً أخيراً ،

تنتهي به الدعوة الاسماعيلية ، كنظام سياسي ، ودولة دنيوية صارمة .

تكننت الدعوة الاسماعيلية في منطقة حلب ، وتكاثر أتباعها في أواخر القرن الخامس الهجري ، بفضل النشاط المعوس ، الذي بذله الحكيم المنجم (اسعد) لدى رضوان ، أمير حلب ، وكان رضوان يميل للاسماعيليين ، ويرغب في الافادة من جهودهم السياسية ، ودعائهم الواسعة ، وسلاحهم الرهيب .

ولعل رضوان ، كان يقدم المصلحة السياسية ، على كل مبدأ . وهذا ما يفسر لنا سر إيمانه على الاسماعيليين ، والدعوة للخلافة الفاطمية بالقاهرة

تارة ، ول (ألمات) تارة أخرى . ويستعين بالفرجة مرة ، وبالعباسيين
أكثر من مرة ، ويخطب للمستعلي من جهة ، ثم ينشئ داراً للدعوة النزارية
في حلب من جهة ثانية .

ومهما يكن من أمر رضوان فمما لاشك فيه ان نجاح الدعوة في منطقة
حلب يعود لرسوخ مبادئ الدعوة منذ زمن طويل ، ولتنافس الأمراء ،
وضعف السلطة السلجوقية ، ودخول القوى الصليبية الى سورية .
ولم يلبث المنجم الحكيم اسعد طويلاً ، حتى فارق الحياة ، عاهداً
بالدعوة الى رفيقه أبي طاهر الصائغ ، الذي تابع سياسة سلفه في التقرب من
رضوان ، والافادة من عطفة ، وتشجيعه :

ومن الانصاف أن نذكر ، أن الاسماعيليين في منطقه حلب ، بذلوا
المستحيل لرد الفرجة الغزاة ، واخراجهم من قلاع منطقة حلب ، فجردوا
حملة على اقامية ٤٩٧ هـ ، وطردها الصليبيين منها ، ولكنهم عادوا للخروج
منها ، عندما توالى الحملات الصليبية ، من الشمال والجنوب . وصمموا على
اغتيال أمير الصليبيين « دوسانجيل » في طرابلس ، فأردوه قتيلاً . كما فعلوا
قبل ذلك بمجناح الدولة ، خال رضوان ، بايعاز من رضوان ، ليتمكن لنفسه
ويتجنب خطر خاله ، بعد الذي كان من أخيه دقاق حاكم دمشق .

غير أن نفوذ الاسماعيليين في منطقة حلب ، وتسلمهم على رضوان ، أثار
حفيظة الشيع الاخرى ، فأخذت تتحين القرض ، للايقاع بهم . وقد سنحت
هذه الفرصة سنة ٥٠٥ هـ ، عندما تعرض الاسماعيليون ، لقافلة فارسية سنية
تابعة للسلاجقة ، خصوم الاسماعيليين . الذين امعنوا في التنكيل باتباع
الدعوة في فارس والعراق . فاستيقظت الاحقاد ، وامتدت الفتنة الى جميع

الاتحاد منطقة حلب ، والباب ، وهو جم الاسماعيليون ، وقتل منهم الآلاف ، دون أن يوفر خصومهم طفلاً ، ولا كهلاً ، ولا إمراً . (١) ولم يستطع رضوان ، أن يدفع عنهم غوائل العدوان . ولكنه بقي على مآلاتهم ، واكرامهم حتى وفاته سنة ٥٠٧ هـ . فأخرجهم منها ابنه وقتل كبارهم .

وحاول الداعية ابراهيم ، بعد ما تعرضت له جماعته من خطر ، في هذه الفترة ، إيجاد ملجأ أمين . فهاجم شيزر ، واقتحمها ، ثم اضطر للتخلي عنها ، مما جعل خصوم الدعوة يشددون الضغط على اتباعها ، ويلاحقونهم بالأذى ، والعدوان ، حتى (٥١٧ هـ) ؛ حين أقبل ، بلك بن بهرام ، نحو حلب ، لمحاربة الصليبيين ، وكانت الخطوة الأولى التي اتخذها ، هي التخلص من الاسماعيليين ، ففارق الاحياء منهم ، منطقة حلب الى دمشق (٢) . وإذا كانت حلب دار الدعوة في هذا الوقت ، فدمشق موطن التنفيذ والعمل وقد اليها الهاربون من حلب والفارون من اضطهاد الخليفة العباسي وتنكيه .

ونتيجة لتلك النكبات ، التي ألمت بالاسماعيليين ، تفرق عدد منهم ، فانتشروا في المدن والقلاع الاسماعيلية ، الواقعة في المنطقة الغربية كالقدموس ومصيف ، والكهف ، والحوابي . وذهب فريق آخر ، بزعامه الداعي بهرام الذي أقبل من العراق ، وهو يحمل حقداً راعفاً على السلاجقة والعباسين ، كما يؤمن إيماناً عنيداً بضرورة تأسيس دولة ، تحرس الاسماعيلية ، واتباعها من خطر الموت ، الذي بدأ يحتاج أنصار هذه الدعوة في كل بقعة من العالم الاسلامي .

(١) ابن العديم ، زبدة الخلب ، ج ٢ ص ١٤٧ وابن الاثير .

(٢) ميشيل لباد « تاريخ قلعة مصيف » ص ٤ .

ولما شعر بضعف أمراء الشام ، وتشبثهم ، وانشغالهم بالفتن الداخلية ،
 وحروب الصليبيين . أيقن أن الفرصة سانحة ، فعمل على نشر دعوته بالسر ،
 فلما كثر أتباعه ، ومال إليه الوزير (طاهر بن سعد المزدقاني) عمد إلى نشر
 دعوته علناً . واضطر علماء السنة في دمشق للسكوت خوفاً من بطش
 الفدائية . ولما استفحل أمرهم ، وعظم تسلطهم على دمشق ونواحيها ، رأى
 حاكم دمشق ، طفتكين ، أن يسلمهم قلعة بانياس ، ليسلطهم على الإفرنج
 ويقطع تسلطهم على المسلمين (١) .

فلما سار بهرام إلى بانياس ، اجتمع إليه أنصاره من النواحي المجاورة .
 فعظم أمره ، ودفعه طموحه منذ استيلائه على بانياس لاحتلال المنطقة
 المجاورة ، رغبة في تأمين إمارة قوية تصون أتباعه ، وتقدم بأسباب الحياة
 الكريمة . فأغار على جيرانه في وادي التيم ، وكان سكانه من الدروز ،
 والنصيرية ، والمجوس . فلما كان عدة حصون ، ثم قتل في إحدى المعارك .
 وتولى بعده في بانياس صديقه إسماعيل ، فأحكم أمره . وكان على صلة
 (بأبي الوفا) الإسماعيلي والوزير المزدقاني في دمشق ، يمدهم بالمشورة
 والرأي . ولما ازداد نفوذ أبي الوفا الإسماعيلي . « حتى صار الحكم له في
 دمشق » خاف صاحب دمشق ، فدبر مؤامرة للتخلص منهم (٢) . وقتل
 منهم عشرة آلاف ، كما يقول ابن الجوزي . فما كان من إسماعيل ، أمير
 بانياس ، إلا أن راسل الإفرنج وسلمهم حصن بانياس ، خوفاً من هجرم
 تشنه دمشق ، فبقي ذلك الحصن بيد الإفرنج ، حتى ٥٢٧ هـ ، عندما استرجعته

(١) كسود علي الخطط ج ٢ ص ٣

(٢) مصطفى غالب ص ١٩٦

جيوش دمشق ، فقادره الاسماعيليون ، الى وطن جديد ، أمين ، مهد لهم
فيه دعائهم ، ألا وهو جبال البهرة المحيطة بمصياف (١) .

ح - الحركة الثقافية

يرى العلامة ماسينيون ، أن الحركة الاسماعيلية ، تتميز من الناحية
الثقافية ، بأنها جعلت اللغة العربية ، مطاوعة لبعض إنتاج الأجانب الفكري ،
وخاصة الانتاج الهيليني . ويعتقد أنهم كالمعتزلة ، يثاؤون بالمقظة الأولى
للفكر الاسلامي ، على أثر اتصاله بالعلوم اليونانية .

وبما يلفت النظر في الحركة الاسماعيلية ، شمولها للمباديء والنظم ،
وقدرتها على الاستيعاب ، وصهر العقائد والعلوم ، في بوتقة واحدة . وتقديم
الحلول العملية والنظرية ، للحياة البشرية ، بجدارة وإخلاص ، يسترعيان
النظر ، ويستلزمان التقدير والإجلال .

والواقع أن الحركة الاسماعيلية ، استخدمت في محاربة خصومها
العباسيين ، مختلف الوسائل . وقدمت للمجتمع ضروباً متنوعة ، من الحلول
الناבעة من حاجات اليمنة ، وإلحاحها المتهادي . فرسمت مثلاً دينية عقائدية ،
وخلقت دولاً سياسية ، وأوجدت حركة ثقافية .

وتمثلت الحركة الاسماعيلية في منحها الثقافي « بإخوان الصفا » وكانت
هذه الطائفة ، كما يقول (براون) موضع عطف بني بويه في بغداد ، حول
منتصف القرن الرابع ، ثم استطاعت أن تتم مبادئه المعتزلة ، من محاولة

(١) مشيل لباد تاريخ قلعة مصياف ص ٥

التوفيق ، بين الفلسفة اليونانية والدين الاسلامي ، وتوحيد الثقافة في دائرة معارف . وقد بلغت هذه الحركة أوج نشاطها عندما نصبت الحضارة

العربية في الفكر ، وانحدرت الى الحضيض في السياسة .

وكان إخوان الصفا طائفة مرية إسماعيلية ، تتألف من طبقات متفاوتة وقد أخذوا كثيراً من مبادئ الفلسفة الطبيعية ، ولجأوا الى تأويل القرآن تأويلاً مجازياً (١) وتتألف دائرة المعارف التي ألفها إخوان الصفا ، من إحدى وخمسين رسالة . صنفوا فيها العلوم ، وردوا كل شيء الى النفس ، وما لها من قوى . وجملة القول في آرائهم ، أنها مذهب جماعة مضطهدة ، تبدو النزعات السياسية في جميع أجزائها ، ونرى من خلال الرسائل ، ما استهدف له أصحابها من عنت وآلام ، وما قاموا به من كفاح ، وما تعرضوا له هم وأسلافهم ، من ظلم . كما نكتين ، ما كان يخلج في نفوسهم من أمل ، وما تواصوا به من الصبر . وهم يلتمسون في هذه الفلسفة الروحية ، سواى لنفوسهم وتطهيراً لها . وهذه الفلسفة هي دينهم . وشعارهم الاخلاص ، والتفاني حتى الموت ، في سبيل إصلاح الاخوان لذا أوجبوا على الانسان مساعدة أخيه في هذه الحياة ، بماله وعلمه (٢) .

وقد أرادوا جمع حكمة الامم والديانات قاطبة ، وقدسوا جميع الانبياء والفلاسفة ، وكذبوا أن ظاهر الشريعة يصلح العامة فهو دواء النفوس المريضة الضعيفة أما النفوس القوية ففداؤها الحكمة الفلسفية (٣) ومع أن بعض

(١) دي بور تاريخ الفلسفة في الاسلام ص ١٠٨ وما بعدها

(٢) تاريخ الفلسفة في الاسلام ، دي بور ، الطبعة الرابعة ص ١٥٩ - ١٦٠

(٣) نفس المرجع ص ١٦٢ ، ورسائل اخوان الصفا الرسالة ٤٢

المتأثرين بفلسفة أرسطو ، عابوا عليهم مبادئهم الفلسفية ، كما فعل بعض الفقهاء
السنين . فإن الفلسفة اليونانية استطاعت أن تستقر في الشرق ، بفضل هذه
الطائفة ، وتأثرت بأفكارهم طوائف الاسماعيليين المتنوعة ، تأثراً كبيراً .
وقد عمل في تأليف هذه الرسائل ، كبار علماء العصر ، كالبسقي ،
والزنجاني ، والعوفي ، وزيد بن رفاعه ، وابن سينا ، الذي انتهت بموته كما
يقول أحد العلماء ، حركة الفلسفة في المشرق (١) . وبذا يمكن القول أن
الحركة الاسماعيلية : جمعت نضال السيف الى كفاح القلم ، وجهاد الروح
الى جهاد الجسد ، في معركة الحياة والمصير .

الفصل الثاني

الدولة الاسماعيلية في مصيف

(٥٥٣٥ — ٥٦٧٠ هـ)

أ - جبال البهرة مسرح الحوادث :

احتلت دولة الاسماعيليين في مصيف ، القسم الجنوبي من جبال العلويين المعروف بجبل البهرة (١) ، الواقع بين المتوسط غرباً ، ونجوم حص وحماء شرقاً . وتاريخ هذه المنطقة يعكس بصورة واضحة ، أثر الموقع الجغرافي في الحوادث التاريخية ، ويبين مدى العلاقة الوثيقة ، بين الظروف الجغرافية والمظاهر السياسية . تلك العلاقة التي ، لم تنفع عبر العصور . وتتألف كتلة جبال البهرة المحيطة بمصيف ، من مرتفعات شديدة الانحدار ، وأودية وعرة المسالك ، ودروب متشعبة ضيقة ، تتشابك في سفوحها الاشجار وتتعانق في اعاليها القمم . فتؤلف بذلك منطقة حصينة ، تغري الهاربين من الاضطهاد الديني والسياسي ، من أصحاب العقائد والتأثرين ، الذي اختلفوا مع ابناء بيئتهم ، باللجوء اليها تمسكاً للحرية والأمن .

(١) حملت جبال العلويين هذا الاسم ؛ من قبائل البهراء اليمينية ، التي استوطنتها بعد الفتوحات الاسلاميه .

وهذا الوضع الطبيعي الممتاز ، فضلاً عن موقعها ، بين الساحل والداخل في بقعة منعزلة عن طريق المواصلات الهامة ، جعلها قبلة انظار الفارين ، والتمردين ، وأصحاب الدعوات المتطرفة . ولهذه الاسباب جميعاً وفد اليها الاسماعيليون ، وتحصنوا فيها ، ونزح اليها العلويون فقامت فيها الحصون ، ونهضت القلاع ، وانبثت في سفوحها القرى . وتلال هذه المنطقة لا تزال تتوجهها الخرائب القديمة المهيبة ، وقد كانت فيما مضى حصوناً ومعاقلاً يقيء اليها طلاب الأمن والحرية .

ومن المؤكد ، أن أهمية هذه المنطقة ، كما يقول دوسو ، تعود الى مناعتها الطبيعية اكثر مما تعود لقلاعها وهذه العوامل جملة ، ساعدت على قيام الدولة الاسماعيلية وازدهارها ، ومكنت الاسماعيليين من مصارعة اقوى الدول المعاصرة وفرض هيبتها عليها ، وجنبت ريفها الوادع المعارك المدمرة ، التي اجتاحت منطقة الشرق الاوسط ، خلال قرنين من الزمان ، وعصفت بكل المنجزات الحضارية . كل ذلك بنتيجة سعي الاسماعيليين لجعل وضعهم الجغرافي ، شجى في حلق الصليبيين ، ومصدراً لا يذائهم والتعرض لهم ، وحاجزاً عتيقاً تحنق اطماعهم التوسعية . وبذلك أتيح لهذه المنطقة عز الاستقلال ونعيم الأمن ، خلافاً لجميع المناطق الساحلية في سورية .

ب - خطة تاريخية :

لم يتميز تاريخ جبل البهرة عن تاريخ بلاد الشام ، في جميع العصور التاريخية ، الا في عهد الدولة الاسماعيلية . وكانت هذه المنطقة تابعة لجند حصص ، منذ الفتح الاسلامي الاول وظلت تسير في ركاب الحوادث والاحداث ، لا تخرج عن خطة المناطق الأخرى ، التي أصبحت نهياً موزعاً للأمراء

المحليين ، بعد انحلال الدولة العربية وسقوطها . فتخضع فترة من الزمن
للطولونين ، ثم للاخشيديين . واذ يدخل الحمدانيون أفق التاريخ من الشمال
تصبح منطقة مصياف ، وجبال البهرة جزءاً لا يتجزأ ، من دولتهم العلوية ،
التي أخذت على عاتقها ، مهمة الدفاع عن بلاد العرب ضد البيزنطيين بيداً
هذا العهد القصير الذي دام ربع قرن ، مالبت ان انصرم ، بوفاة الامير
العظيم ، سيف الدولة الحمداني سنة ٣٥٧ هـ ، وتعرضت الجبهة العربية ، التي
مزقتها المنازعات الفردية ، والمنافسات العرقية والدينية ، لهجومات
البيزنطيين المتلاحقة ، على طول الساحل السوري والحدود الشمالية .

وقد عجز سعد الدولة بن سيف الدولة ، عن دفع البيزنطيين ، لانهاشهم
بوصول نقفور فوكاس الى الحكم . مما اضطره لعقد معاهدة مشينة ، مع
نقفور سنة ٣٥٩ هـ أصبح بنتيجتها جزء كبير من أماره حلب ، ومنطقة
جبال العلويين ، خاضعاً للنفوذ البيزنطي وبذلك صار الروم حدود مشتركة
مع الدولة الفاطمية الفتية في سورية الوسطى ، وعندئذ بدأ النزاع بين الدولتين
واستمر نحواً من ربع قرن ، تراجعت في نهايته ، القوى البيزنطية المعتدية ،
بعد معارك دامية التحم فيها الفاطميون بالبيزنطيين في عهد المعز الفاطمي .

وتعاونت القوى السورية والمصرية ، تحت القيادة الفاطمية ، فأرغم البيزنطيون
على التمهقر حتى آسيا الصغرى سنة ٣٨٩ هـ ، بعد أن حكموا منطقة العلويين
خمساً وعشرين سنة ، غرقت فيها سورية الوسطى في التخريب والفوضى . وبرغم
ذلك عاشت منطقة مصياف وجبال البهرة ، بعيدة عن ساحات القتال
والمهالك ، بفضل موقعها الحصين ، وعزلتها الطبيعية ، خلافاً لما حدث لمحص
وحماه وشيزر .

وأدركت الدولة الفاطمية واجبتها تجاه الشام ، فشرعت تبعث بالجند
لحمايتها والدود عن تخومها (١) وأخذت تفخر بجهادها عن العالم العربي ضد خصومه
بينما تقف خلافة العباسيين في بغداد ، قعيدة ، مشلولة ، لا تبدي حركات ولا
تبذل مسعى .

على ان الخلافة الفاطمية التي شملت سورية بما فيها جبال البهرة ، لم
تستقر طويلاً في الشمال اذ لم يكد ينصرم عهد الحمدانيين في مطلع القرن
الخامس الهجري ، حتى تغلب على المنطقة الواقعة ، بين دمشق والموصل ، أمراء
الجماعات البدوية ، كبنى عقيل ، وبنى مرداس ، وكان المرداسيون في حلب
خاضعين للفاطميين في مصر ، والعقيليون في الموصل تابعين لبغداد .

ومضى القرن الرابع ، والنصف الاول في القرن الخامس الهجري ، وبلاد
الشام على عهدا من الفوضى والخصومات ، حتى حكم دمشق في هذه الفترة
حمّال تراب اسمه قسّام ! او حكم بلدة صور فلاح يدعى علاقة ، وتسرب الوهن
لحكومة الفاطميين في القاهرة ، لكثرة المؤمرات والمنازعات ، وسوء الموام
بسبب الجفاف ، وانحراف اهل الشام عن الدعوة الاسماعيلية (٢)

ومع ذلك ، بقيت الخلافة الفاطمية في العالم العربي ، تقود حركات
التحدي الاسماعيلي بنجاح كبير ، وتوجه كل قواها ، لحسق الخلافة العباسية
المريضة ، بعد ان امكنت فيها عوامل الانحلال وانجلت حركات المد الاسماعيلي ،
من الحدود الغربية لخلافة بني العباس ، عن سقوط بغداد بيد البساسيري ،

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ٣١

(٢) شاكر مصطفى ج ٢ ص ٣٩٣ ، ٣٩٦

والامير العربي ابن صدقة ، والمناداة على منابر بغداد لخليفة الاسماعيليين
بالقاهرة ، وبدا لفترة لاتريد على السنة ، كأن الخلافة العباسية قد انتهت ،
وكان خلافة القواطم قد حلت محلها في بغداد .

وفي هذه الغمرة ، اطلت من الشرق ، جحافل السلاجقة كقوة فتيحة
جديدة ، تمثل تحدياً عنيفاً للاسماعيليين ، ورداً سنياً نشطاً ، أقال خلافة
بني العباس من عرشها (١) .

وكان ظهور السلاجقة في افق الحياة الدولية ، نذيراً بتهلكة نفوذ
الفاطميين ، الذين تعرضوا للضغط المستمر من جميع الجهات . وتآلب عليهم
اعدائهم من الداخل والخارج ، من الغرب البيزنطي ، والشرق السلجوقي ،
وخيمت قبائل الترك في قلب العالم الاسلامي ، بعد سقوط بغداد بيد السلاجقة
٤٤٧ هـ ، واندفاع امرائهم نحو الغرب ، يحررون الشام ، وآسيا الصغرى ،
ويحررون حظهم في النهب والسلب ، في منطقة عريقة بالحضارة ، كما يقول
بارتولد :

ولم تقف قبائل الترك البربرية عن الزحف المتوالي ، حتى قوضت حكم
الفاطميين في الشام ، بين (٤٦٣ - ٤٦٧ هـ) ، ولاحقتهم حتى حدود مصر ،
فانكفأت ، تلك الجماعات المتبدية بعد ذلك تفترس بعضها بعضاً ، وتنشب
مخالبها الدموية ، في ضحيتها الهالكة ، فتعاني بلاد الشام ، فترة من القحط
والفلاء والجوع تفوق حد الوصف « حتى تصيّد الناس بعضهم في الطرقات ،
وأكلوا السنائير والكلاب » (٢) .

(١) شاكر مصطفى ج ٢ ص ٣٨٩

(٢) كود علي خطط الشام .

وارسل ملكشاه سنة (٤٧٦ هـ) التركمان الى الحجاز ، واليمن ، فلم يتركوا فاحشة الا ارتكبوها ، كما يقول ابن الاثير . وهكذا تقصلت ظلال الخلافة الفاطمية عن سورية الداخلية ، والجزيرة العربية وقسمت على امراء السلاجقة الاقطاعيين ، مما حال دون وحدة الصف عند مجيء الغزو الصليبي .

وغدت منطقة جبل البهرة بذلك جزءاً من امارة حلب السلجوقية ، تؤدي لها فروض الطاعة ، ووجائب الجزية ، وتتمس العيش الهادي ، في ظل امرائها العرب (بني منقذ) حكام شيزر . وتشترى بالمال والطاعة الاسمية لحلب ، أمنها وسلامتها وحريتها أيضاً . ويمكن ان نعتبر من عهد بني منقذ ، بداية لدولة مصياف المستقلة ، التي نشأت على يد بقية باقية من ارث دول الاسماعيليين التليدة .

٢ - دولة الاسماعيليين المستقلة في مصياف (٥٣٥ - ٦٧٠ هـ)

(١١٤١ م - ١٢٧٣)

١ - عهد بني منقذ : تفيد الاخبار التاريخية ، أن بني منقذ ، بدأوا يشبثون أقدامهم في قلعة شيزر ، منذ عام ٤٧٤ هـ واحتلوا اللاذقية ، وكفر طاب ، نحواً من (٤٨٠ هـ) (١) وربما أخضعوا مصياف بعد ذلك أيضاً وما كادوا يستقرون في أمارتهم الناشئة ، حتى دهمتهم الغزوات الصليبية (٤٩٢ هـ - ١٠٩٩ م) فلجأ أمير شيزر لإرضائهم بالمال والمفاوضة ، فتحولوا الى طريق وادي الساروت المؤدي الى مصياف ، وعندما بلغوا أسوار القلعة خرج أميرها العربي ، فوقع معهم اتفاقاً وصرّفهم نحو بعرين (الرنية) (٢) ،

(١) كرد علي ص ٢٦٥ وما بعدها

(٢) Runciman : History of Crusades

ليجنب بلده ذل الغزو العاشم ، فتوجهت جموعهم تكتسح في طريقها نحو (الرمنية) وطرابلس كل شيء ، ثم تقف عاجزة أمام صمود ابن عمار وهجمات الاسطول الفاطمي أربعة أعوام كاملة تدخل بعدها طرابلس ، وتجعلها قاعدة لجيشها وأسطولها في الاعمال التوسعية ، ومن طرابلس شنت غزوات متلاحقة على سفوح جبل البهرة الشرقية والغربية ، سقطت بنتيجتها قلعة الاكراد ، وامتدت آثارها حتى شملت البقاع والرمنية ٥٥٣ هـ . وشعر أمراء المنطقة بالخطر ، فقرروا مواصلة الفرنجة ، واتفق صاحب حمص مع الفرنجة على أن يسلمهم حصن عكار ومنطقة البقعة ، ويدفع لهم مبلغاً من المال مقابل استقلال مصياف ، والكهف ، وحصن الطوفان (١) . وبذلك دخلت مصياف تحت نفوذ الصليبيين مع ارتباطها بأمره صاحب حمص حتى انتزعها الاسماعيليون سنة ٥٣٥ هـ من بني منقذ فدخلت في عهد جديد .

٢ - الوطن الجديد : جبال البهرة هادئة في مطالع القرن السادس لهجرة الرسول . كل شيء على مايرام . فنسمات البحر تهب رحية بليلة ، والسواقي تفرغر بألف أغنية ، والدروب الداهية الى القمر تستقبل الفلاحين في غدوة ورواح كالمعتاد ، وهذه الجنة الصغيرة ترقبها الليالي وتكر الايام ، وهي تنعم بحياة من السكينة والهدوء ، تغبطها عليها جاراتها . فالامر على خلاف ذلك في البلاد الداخلية والساحلية ، حيث أنشب الغزاة الصليبيون أظافرهم في الساحل مرة بعد مرة . وأوغلوا في الداخل وأعملوا التخريب في جوف البلاد ، حتى وصل تخريبهم الى حمص وحماة ودمشق . وفي الداخل تدفق السلاجقة

قبائل متبربرة في مناكب الارض العربية ، يذبحون الناس ويحرقون الغلات
ويهدمون المدن ، ثم ينصرفون الى قتال بعضهم بعضاً ، حتى آخر رمتق من
الحياة فعادت البلاد خلواً من آثار العظمة ، وذهب عنها رواؤها ، ولم يبق الا
فلاحون مغلوبون على أمرهم ، بؤساء ، يعملون في أرض نكراء وجند مأجور
همه النهب والسلب وإثارة الفتن ، وبقية من عرب خيم عليها يأس قاتل
تذتظر من يبعث فيها الرجاء ، وسوف تلبث وقتاً يزيد على نصف قرن ،
حتى يقبل نور الدين ، وصلاح الدين .

ولكن جبال البهرة لم تكن كالجزيرة في خضم الحوادث لا تتأثر ولا
تخرج عن عزلتها الحاملة ، ولم يكن من المحتمل أن تبقى على هذا الوضع ،
بعد التطورات الجديدة التي طرأت على العالم العربي . فلا بد أن يحمل الموج
السفينة الى شاطئ السلام ، أو يغرقها . وهكذا بدأت قصة الدولة الجديدة
بانشال جموع من المشردين المغامرين الى قلاع جبل البهرة ، ليجربوا عظمهم
في الوطن الجديد ، وقد بلغ عددهم ٦٠ ألفاً على تقدير وليم الصوري (١) .

(٣) سيطرة الاسماعيليين : كان مجيء الاسماعيليين الى هذه المنطقة ، وعلى

صورة جماعات كبيرة ، نتيجة لأزمة خطيرة مرت في حياة الامة العربية .
فقد أطبق الصليبيون من الغرب على الساحل السوري ، وهجم الفرنجة على
المغرب وطردهوا الفاطميين من المهديّة ، واندفع السلاجقة من الشرق
فتوضّعوا في قلب العالم الاسلامي والجناح العربي الآسيوي وبدأ صراع
مريز بين الفاطميين والصليبيين على الساحل ، دام نحواً من نصف قرن . كما

نشبت حروب أخرى في الداخل ، بين قوى السلاجقة المفككة وجيوش
الفرنجة الغزاة .

وفي مطالع القرن السادس الهجري ، وخلال الزيع الاول منه ، لقي
الاسماعيليون في بلاد فارس ، وفي حلب ودمشق ، كما سلف ، ضروباً متنوعة
من الضغط والذبح والتمثيل ، حملتهم على التفكير بوطن جديد ، يتوفر فيه
الهدوء ، والمنعة والحرية . والفوا منطقة مصياف عامرة بالقللاع ، حافلة
بالخيرات ، حصينة ، منعزلة ، وفيها من أنصار الدعوة ما يشجع بالحميء الياء .
وبدأت موجات الهجرة الاسماعيلية تتوالى باستمرار ، وتزداد بازدياد
الضغط السلجوقي في فارس والعراق والصليبي في منطقة طرابلس والبقاع .
وعندما بلغ الاضطهاد اوجه في قلاع فارس الاسماعيلية طفحت دروب جبال
البحرة بالهاربين المضطهدين والمغامرين الحاقدين ، والمتطرفين القساء . وذلك
نحواً من سنة ٥٢٢ هـ .

وفي هذه الفترة ما بين (٥٠٠ - ٥٢٥ هـ) تكاثر عدد الاسماعيليين
الوافدين ، وامتألت رحاب الريف الهادي ، بذوي العيون الزرقاء ،
القادمين من بلاد الفرس . واصحاب الوجوه النحاسية والسمراء ، المقبلين
من وادي التيم ، وربوع دمشق وصلخد .

ولم يكن يجمع هؤلاء العرب ، والفرس ، والآكراد ، في هذه البقعة ،
الا هدف واحد هو الاشتراك في عقيدة فكرية ، والعمل لاقامة دولة واحدة
يتقاسمون فيها السراء والضراء ، تحت جناح امام معصوم ، ظاهر او مستور
ورعاية حجة من حججه ، أو داعية من دعائه ، تستوي عندهم الحياة
بالموت في سبيل مرضاته .

وعندما أيقن هؤلاء المغامرون الأذكياء ، بقدرتهم على احتلال المنطقة والسيطرة عليها ، بادروا للعمل ونوسوا بالحيلة والمال لامتلاك عدد من الحصون والقلاع . وقد جربوا هذه الأساليب قبل الاستيلاء على منطقة مصياف . ومن الأدلة على ذلك ، وعلى تمكن المغامرة والتطرف في قلوبهم أنهم بدأوا تصييد الحظ ، عشرات السنين : في سواد العراق ، والبحرين ، والقاهرة ، وفارس ، ودمشق ، ووادي التيم . وما لبثوا ان توضعوا في جبال البهرة ، حول عاصمة قلاع الدعوة (مصياف) واستقروا في حنايا الاودية وعلى السفوح ، يستنبتون الفلّات ويشيدون القرى والحصون ، ويعكفون على العلم والأدب والفلسفة ، لإغناء مكتباتهم وتنشئة صغارهم على حب المعرفة والتعلق بالدعوة ، ويدربون فتيانهم على الشجاعة الفذة والتضحية بالحياة ذوداً عن الوطن . ومن مكائدهم في جبال البهرة ، وجهوا سهام الانتقام لخير انهم الذين ناصبوهم العدا . وانقلبت جبال البهرة من حال الى حال لدى وصول الاسماعيليين . فشرعت تهاجم خصومها بجرأة نادرة ، بعد أن عاشت تحت رحمة الصليبيين تدفع لهم الجزية ، في عهد الامراء السابقين ، ولذا استسلم بعض امراء المنطقة ، كأبن عمرون للاسماعيليين وباع حصن القدموس ٥٢٥ هـ .

لأبي الفتح الاسماعيلي ، تخلصاً من الضغط الصليبي ودفع الجزية . بينما رفض البعض الآخر الامتثال لرغبتهم كصاحب قلعة مصياف ، فدبروا له مكيدة اودت بحياته ووثبوا على القلعة واحتلوها سنة ٥٣٥ هـ . وتم لهم فيما بين (٥٢٥ هـ - ٥٤٥ هـ) الاستيلاء على حصون البهرة ، وبدأوا مرحلة جديدة من الكفاح لتوطيد دولتهم الناشئة .

ما كاد الاسماعيليون يستقرون في هذا الوطن الجديد ، حتى واجهتهم مشاكل عسيرة . تقتضي الحل الجريء ، والفكر الثاقب ، والشجاعة الفذة مع الحكمة والروية وفهم الظروف السياسية والدولية وأهم هذه المشكلات ابواء الوافدين من انصار الدعوة ، وخلق وحدة متماسكة من تشتت الاهواء ، والمنازع . والدفاع عن المنطقة ضد عدوين قوين ، في الشرق والغرب ، وتوضيح العلاقة بأصحاب قلعة ألموت في فارس .

وقد استطاع الاسماعيليون ، في هذه الفترة من عمر دولتهم في مصياف ، ان يحلوا هذه المشاكل بحكمة وبصيرة ، فبرهنوا على أنهم من أسطع العناصر واقواها على مغالبة العراقيين ، والتكيف مع الأحوال المتطورة ، وأجرأها على استعمال السيف ، والاستمساك بالسلطة . فلم يحجموا عن الجهاد الحربي العنيف ، والاعتيال السيامي الرهيب ، عندما اقتضت الضرورة ذلك ؛ ومزجوا بين الحياة الواقعية ، والمثل الرفيعة النظرية . وكان الاسماعيلي يتميز بعنفه وتطرفه ، وكبريائه التي لا تقهر ، وتمرده على مفاهيم عصره ، فهو انسان فذ ، لاتلين له قناة ، وشجاع لا يرهب الموت ، ومفكر عبقرى لا يخضع الا لقوة العقل المنطق ، يغريه التطرف ، وحب المغامرة ، والتمرد . مشهور بسعة آفاقه ، ودأبه على العمل ، عنيد صارم لا يلين في مقاومة خصومه ، ولكنه سلس القياد ، لين العريكة ، في اطاعة أئمة ، عميق الثقة بهم ، يموت دفاعاً عن عقيدته ، وتنفيذ أوامر أئمة ، بنفس رضية . أو أليس ذلك من غريب الامور ؟ ثم أليس من غريب الامور أن ينشئ دولة منظمة هادئة ، بحفنة من المغاوير ، تحت أعين أقوى الدول في العالم ، ويناصبها

العداء ، ويخرج ظافراً في معظم معاركه ، ومغامراته ؟

وتولى قيادة الاسماعيليين في هذه الفترة : (بهرام بن موسى) ، ثم (أبو محمد) وما يميز هذا العهد ، أن مصياف كانت تابعة لقلعة « الموت » في بلاد فارس . ولم تنفصل وتستقل عنها إلا بمجيء راشد الدين سنان . وقد جعل الداعيان المذكوران قلعة مصياف منذ (٥٣٥ هـ) عاصمة لها لأهمية موقعها فأصبحت مركزاً لنشر الدعوة وتدريب الفدائية ، وعقد المؤتمرات السياسية ووضع الخطط الحربية ، للدفاع والهجوم (١)

ولا شك أن عهد شيخ الجبل راشد الدين سنان ، يدين بكثير من عظمته وازدهاره ، للأعمال الجليلة ، التي قام بها هذان الداعيان ، في الحقلين الخارجي والداخلي (٢) .

وكانت قلاع الدعوة تتلقى فيضاً متواصلاً من الاسماعيليين المضطهدين الوافدين من الشرق والغرب ، هرباً من الارهاب الصليبي والسلجوقي . وما كان يقدر لهذه الجموع المحرومة المقهورة ، ان تقف مكتوفة الايدي ، ولا ينتظر من تأصلت في نفوسهم منازع الحرية ، وتوهجت في دمائهم دوافع الثورة والنقمة . السكوت على ما تجترحه في حقهم الدول المجاورة ، وقد مهر دعائهم في استغلال هذه الميول لتثبيت دولتهم وارهاب خصومهم .

ومن أجل ذلك جهد الدعاة في تقوية البناء الداخلي ، بايواء القادمين وتأمين مواردهم ، واعدادهم لمهمة العمل السامي والحربي معاً . ونهض الاسماعيليون بجميع المسؤوليات الداخلية والخارجية في آن واحد . فالفلاحون يكتسحون الاراضي

(١) عارف تامر ، سنان وصلاح الدين ، ص ٣٢

(٢) ميشيل لباد ، رسالة في تاريخ قلعة مصياف ، ص ١٤

البورويقتظعون الاشجار لزراعة الحبوب ، والنساء تعمل ليل نهار في نسج الثياب
الصوفية والبسط ، والصبيبة الصغار جنود الغد يذهبون الى دور الدعوة لتعلم اصول
الدعوة الاسماعيلية ، وداعي الدعوة يدأب ليل نهار مع أعوانه في رسم الخطط ،
وتنفيذ الأعمال الخطيرة ، دون أن يهمل شاردة أو واردة من شؤون دولته
الصغيرة . فيقضي في الخلافات الطارئة ، ويشرف على ترميم القلاع ، ويشجع
المدرسين في دور الدعوة ، ويرقب من على قلعة مصيف ، دولاب الحياة ،
وهو يدور بدون انقطاع . مستعيناً على ذلك بأعوانه المخلصين ،
الموزعين في القلاع والحصون ، الذين يرفعون اليه تقارير مفصلة ، عن جملة
الامور في أرجاء دولته .

وهكذا بدأت تظهر دولة جديدة رغيدة العيش ، على غاية من النشاط
والحيوية واليقظة ، توحيدها الأهداف والآلام المشتركة ، وتهيمن عليها وحدة
العقيدة ، وقدسية الامام المعصوم . ويجمعها مصير واحد مشترك .

ولكن هذه الدولة الفتية المتهاسكة ، أثارت بتقدمها وغوها السريع ،
حفيظة جيوانها . وحركت عوامل الخوف لدى الصليبيين والمسلمين ،
« وكانوا كلهم يكرهون مجاورة الاسماعيلين » ويتهيبون نتائج امتلاكهم
حصن القدموس وبقيّة الحصون (١) .

وقد أدرك الاسماعيليون وجه الخطورة في وضعهم الجديد . فأعدوا العدة
للأزمة للوقوف في وجه الطامعين ، فهماموا بتدريب فدائيتهم الرهيبة ،
نسى القلاع وحرس الحصون . وبعثوا بفرق الاستطلاع الى قلب الدول
المجاورة ، لمعرفة نوايا الخصوم وما يبيتون من شر ، وقد تزودوا بكافة

(١) كرد علي ؛ الخطط ؛ ج ٢ ص ٧

المعلومات الضرورية وأنقنوا لغات الخصوم ، وعاداتهم وعقائدهم ، ليسهل عليهم أداء مهمتهم . وعمدوا الى ترميم القلاع وشحنها بالجنود وتزويدها بالمؤن والاسلحة ، وحماية جبال البهراء من مطامع نور الدين الذي احتل المنطقة الداخلية من البلاد . وعمل على ضم الامارات المتنازعة في دولة موحدة الاهداف لدفع الغزو الصليبي . ولذا حاول الإستيلاء على قلاع الدعوة في جبل البهرة بعد استيلائه على سهول العاصي واحتلال حمص وحماة وقلعة بعين ، فخلق جبهة قوية متأسكة . ولكنه بصطدم منذ الوهلة الأولى ، ببناءة قلاع الدعوة وخطر الفدائية الباسلة ، فيلوي يجيشه نحو الداخل ، ليسحق الدويلات السلجوقية الهزيلة ثم ينصرف لناواة الفرنجة .

وفي غفلة الدول المجاورة واصطراعها . ينصرف حكام مصياف الاسماعيلون لتوسيع رقعتهم ، وبسط نفوذهم على القلاع المجاورة . وقد دأبوا منذ انتزاع مصياف من بني منقذ . على مناصبتهم العداء وإرسال فدائيتهم الى قلعة شيزر ، مركز امارة بني منقذ ، لتنفيذ أوامر شيوخ الجبل . ويفهم من كتاب الاعتبار ، أن أسامة بن منقذ أمير شيزر كان يكره الاسماعيلين ويخافهم ، لأن دولة مصياف ، ماتقتأ ترسل مغاويرها الى شيزر حتى حل بها زلزال فدمر قسماً منها وقضى على حكامها . فاستولى مغاوير مصياف عليها . (٥٥٢ هـ) وبقيت بأيديهم حتى انتزعها نور الدين ٥٦٤ هـ في عهد راشد الدين سنان (١) .

وهكذا قُدر لأتباع إسماعيل ، أن يوطدوا سلطان دولة فتيحة في منطقة مصياف ويثبتوا أركانها ، بفضل ما الصطنعوه من وسائل دفاعية وهجومية ،

(١) مشيل لباد ، تاريخ قلعة مصياف ، ص ١٧

واستغلال الظروف الدولية ، وغفلة الحكومات المجاورة . وغدت بحصونها
المنيعه ومغاويرها الشجمان ، وسياستها الناشطة ، في حرز أمين من غزوات
الجيران وتعدياتهم ، وقد أدرك سنان بعبقريته الغذة أهمية هذه الوسائل ،
فأولاها عناية بالغة ارتفعت بها الى ذرة الكمال والقوة ، في عهده الزاهر .

٥ - دور الذروة : (٥٦٠ هـ - ٥٩٠ هـ) - راشد الدين سنان

حياته : لمعت في هذا الدور ، شخصية تاريخية جذابة ، تركت أثراً حياً
في التاريخ . وزرعت في قلوب أبناء العصر الوسيط من الحب والرهبة قدراً
كبيراً . ونثرت من الاشلاء والدماء ، بقدر ما بعثت من الخير والرفاه ،
واختلف الناس حولها اختلافاً بيناً ، شأن كل العبقريات . وحسكت حولها
الروايات والقصص والاساطير ، في العربية والاجنبية . وبلغت من سعة
الصيت وجلال القدر والشهرة حدوداً لم يطمع بأكثر منها كبار ملوك
العصر . تلك هي شخصية سنان راشد الدين بن سليمان البصري .

ولد سنان بن سليمان الملقب براشد الدين (والمكنى بأبي الحسن) في
البصرة ، أو في قلعة « ألموت » ، على خلاف في الرأي بين المؤرخين
سنة ٥٢٨ هـ . وتثقف بالعلوم الاسماعيليه في المدرسة النزارية في « الموت » ،
وقد بدت عليه علائم النجابة والنبوغ في سن مبكرة ، فارتقى في
مناصب الدعوة ومراتبها ، حتى أصبح من اكبر الدعاة وأعلمهم . وأهله
جدارته في نظر الامام القاهر لتنظيم الدعوة الاسماعيليه في العراق .
فأوفده الى البصرة وزوده بإرشاداته وتعاليمه ، حتى إذا استقر في البصرة
تمكن بوقت قصير من إعادة النشاط الاسماعيلي في العراق بشكل أقوى
وأوسع من ذي قبل (١) .

(١) مصطفى غالب : ص ٢٠٥ - ٢٠٧

وبعد عام واحد توفي ابن عمه الامام القاهر ، فعادر سنان البصرة الى حلب وجبل السحاق ، ليتولى شؤون الدعوة في سورية ، بعد ان اصبحت الاسماعيلية فيها على وشك الانقراض ، نظراً للخلافات التي نشبت بين بعض الدعاة (١) سنة ٥٥٧ هـ .

وصل سنان الى حلب ، فأعاد النظام الى صفوف الاسماعيليين وشرع الناس يتوافدون اليه لسماع أحاديثه الشيقة ، وحججه القوية ، فأدهش العلماء والفقهاء بما اظهره من مقدرة علمية فائقة ، جعلته يحتل مكاناً سامياً في القلوب ، وارتفعت منزلته ، وقوي نفوذه .

ثم نقل مقره الى منطقة مصيف . فوصل متخفياً واقام بمصيف فترة من الزمن لا يعرفه فيها أحد ، ثم غادر مصيف بعد مدة الى قرية بصطريون قرب الكهف ، واخذ يشتغل بتعليم الصبيان الخط ، ويعالج المرضى بمهارة ملموسة ، حتى لقب بالطبيب (٢) ، واشتهر بين الناس بتيقاه وزهده ، وصلاحه . فعظمه الناس ، ولقبوه بالشيخ العراقي . وكان هذا الشيخ ، يلبس بردة يمنية ، يغسلها بيده ، ويحتذي خفاً من صنعه ، ويحيط نفسه بكل مظاهر التقوى والوقار والهيبة . وعمل على مساعدة الشيخ (أبي محمد) في الكهف ، سبعة أعوام حتى دنت وفاة (أبي محمد) ، عهد الى راشد الدين سنان برئاسة الدعوة (٣) .

(١) غالب ص ٢٠٨ هناك خلاف بين ما يرويه السيد مصطفى غالب ، وما تحكيه المخطوطات الاسماعيلية في مصيف .

(٢) يلاحظ ان معظم الدعاة كانوا يمارسون الطب والعلوم السوية كالقداح وسنان ... الخ ولعل ذلك كان وسيلة لاختفاء اهدافهم .

(٣) مخطوط اسماعيلي « مناقب المولى راشد الدين » .

ويبدو ان سناناً لجأ للتخفي والمستتر تمهيداً لفهم الأوضاع ، واستجلاء الأمور ، لمهاجتها على اسس منطقية واضحة . كما يلاحظ أن الاسماعيليين في هذه المنطقة ، قد جنحوا الى الانفصال عن « ألموت » في فارس ، وعكفوا على بناء حياتهم الجديدة ، على اسس معقولة من العمل والتنظيم ففقدت « ألموت » صلتها بمصيف ، وخسرت سلطانها ، بعد أن عجزت عن حماية اتباعها في فارس من غزوات السلاجقة المتلاحقة . ولعل سناناً ، فهم ذلك وادركه ، فمال الى التمكين لنفسه بقواه الشخصية الخارقة ، والتدليل على زعامته بصفاته ومزاياه وبما تحدر اليه من اصالة الدم ، وعراقة النسب . وكانت ثقة سنان بنفسه ونظرته الشاقبة ، سبيله الى المجد وبلغت دولة مصيف في عهده الذي امتد ثلاثين عاماً ، ذروة الازدهار والعز ، ومرجع ذلك شخصيه سنان ، ومؤسساته الرائعة ، وسياسته الناجحة .

ظروف الرجال محك شخصياتهم : من أسرار عبقرية سنان أنه اسماعيلي
نودجي ، امتاز بسعة الافق العلمي ، والدهاء السيامي ، وبقدرته العجيبة على التنظيم ، والتدريب ، والتنفيذ . كما اتصف بفهمه العميق لظروف الحياة الدولية في الخارج ، والمنازع الفكرية في الداخل ، واستغلاله لها جميعاً ، بمهارة استرعت اعجاب الناس ودهشة المعاصرين . والى نجاحه في جميع أعماله يعود تقديس اتباعه لشخصيته . لأن الناس في جميع العصور يميلون لتمجيد الاقوياء ، ورفعهم الى مرتبة الألوهية ولا سيما في العصر الوسيط حين قل الأمن واضطربت شؤون الحياة .

وكان الاعتقاد السائد ان الشخصية القوية من دلائل رضى الله ونعمته ، ونجاح الرجل ، من علائم التوفيق والتأييد الالهيين . فهل تدهش بعد ذلك

لتقديس شخصية سنان ، والانفصال عن قلعة « ألمات » الفاشلة !! لقد
اضحى الانسان المتفوق في العلم والسياسة والأعاجيب السحرية ، مصدر
وحي لاتباعه ، ومنبع الهام في خلق الوحدة والانسجام في دولته، ومبعث
كل نظام وقوة في حياة انصاره ، ومهوى الحب العميق والتقديس .

فكيف اذا استحوذ رجل عريق النسب ، على جميع صفات القائد
العسكري البارع ، والعالم النابغ ، والسياسي العنيد الفذ ، في زمن انحدرت
فيه حياة اتباع اسماعيل الى هاوية اليأس ، وترقبوا مجيئ المنقذ بفارغ الصبر
شأن جميع الفئات المضطهرة المغلوبة في العالم .

لقد ابتلى الاسماعيليون في نهاية عهد أبي محمد بمرض العصر فبدأ النزاع
ينخر في قلب المنطقة ، وشرع نور الدين والصليبيون يسطران عند تخومها
فتملك نفوس الناس في جبل البهرة ، الخوف والاضطراب وامتزج خوفهم
الجديد ببقية خوفهم القديم ، وتشوقوا الى شخصية قوية تفرض النظام في
الداخل ، وتتصدى للخصوم في الخارج .

وآمن الناس عصرئذ بأن الحياة ستسير إلى خراب ويأس ، إذا لم تظهر
شخصية تتحدى القوى الكبرى المتعاركة ، والدنيا الى شر ، إذا لم يظهر
فيها الامام المعصوم ، الذي يتعلق به الغارقون في لجج اليأس والخوف ،
وذكريات التشرد . فلا بد من قائد مارد مسيطر قوي العقل مخنك يهر
الناس بسحر شخصيته ، وسداد خطته ، ونجاح سياسته ، لا بهرج ثيابه
ولعان الذهب في تاجه . لأن العهد عهد عمل بالقرائح والعقول ، وبالسلح
والخطط الحربية ، وبيريق السيوف لا بيريق التيجان . وقد تمتع سنان

بالشخصية المطلوبة ، وامتلك جميع الصفات القيادية التي تلي حاجة اتباعه ،
واستخدم ارادته الحديدية في توجيه ميول اتباعه وظروف محيطه لخدمة
دولته الناشئة .

ولا شك ، أن سناناً فكري وهو في طريقه الى جبل البهرة ، بما يحتاج
اليه قائد الفرقة الاسماعيليه في ذلك العصر العجيب ، وفي مثل تلك الظروف
من استجماع نواحي العظمة والتفوق ، مع التقوى والرهبة ، لان الاسماعيليين
لا يهوى الا الغلو في فهم العظمة والغلو في فهم المجتمع ، ورسم المثل العليا .
ولا يتعشق الا الغموض والأسرار ، مع نزعة عملية في استخدام ذلك كله
في ظروف الحياة ، وتفسير غوامضها . فأقبل سنان بنفس عامرة بالاخلاص
والهمة ، وعقل واسع العلم يفيض بالحكمة .

« اذ امتاز سنان بمعرفة الجبر ، والشعر ، والفنون ، وعلم النجوم » (١) .
« وكان أديباً فاضلاً عارفاً بعلم الفلسفة ، وله شعر حسن وكلام
منثور جيد » (٢) .

واشتهر بالقدرة على القيادة ، فكان قائداً فذاً وشجاعاً مقداماً ، وعلى
جانب عظيم من المعرفة والذكاء كما يقول إيفانوف .

وكان طموحاً ، نشاطه لا يحد (٣) ، و ارادته لا تغلب ، فسانقاد اليه
الاسماعيليون في سورية مالم ينقادوا لغيره (٤) . مما اثار دهشة المؤرخين

(١) إيفانوف ، الموسومة الاسلامية ، مادة سنان .

(٢) كرد علي ، الخطط ج ١ ص ٢٦٢ .

(٣) Le Gui des Blues

(٤) كرد علي ، الخطط ج ١ ص ٢٦٢ .

المسلمين والفرنجية على السواء ، واندفع ابن جبير الذي زار سورية في عهده يقول : « ان الاسماعيليين ، يبذلون الانفس دون امامهم سنان ، وحصلوا من طاعته ، وامتثال امره ، بحيث يأمر أحدهم بالتردي من شاهق جبل فيتردى » (١) .

والقي سنان بشخصيته الغذة وسط فوضى الاحداث ، فدلل على امتياز عجيب في ادراك نفسية الجماهير ، واستخدام منازعها في سبيل النجاح سياسته الداخلية والخارجية ، وقاد طائفته الى ذري العظمة والقوة .

وكما امتاز بعلمه الغزير ، وقيادته الحكيمة . اشتهر كذلك بزهده ، وعفته وتقاه الصوفي ، وعرف ببساطة العيش والاعتدال في المأكل ، والمشرّب والمسكن ، والملبس . لأنه كان يقدر أثر القدوة الحسنة في تقويم الرعية وانقيادها . ولعله ادرك انه في جهاد دائم ، يقتضي التقشف والاستعداد الدائم للتغلب على كل عوامل الضعف في جسم دولته ، ورد كل عدوان عنها . فكان يعمل بنشاط بالغ وحيوية لا تهدأ في تعليم الانصار ، وحضهم على الجهاد ، وتنظيم ميولهم وتصرّفاتهم . مستعيناً بمقدرته الخطابية ، وشخصيته السحرية فكان اذا خطب جلس على الصخرة ، داعياً الى نخلته ، ثم يصبح بعد قليل ، لا يختلف عن الصخر جوداً وصلابة . وقد أثارت هذه الظاهرة المدهشة عجب الناس (٢) فازدادوا تعلقاً به ، وانقياداً لسلطانته الذي لا يقاوم وقد استوعب سنان الغايات البعيدة ، والوسائل المؤدية اليها فمضى لتحقيق أهدافه ، بقدوم ثابتة وعزيمة كجد السنان .

(١) رحلة ابن جبير ، ص ١٧٤ .

(٢) ايفانوف انظر « تاريخ قلعة مصيف » .

سياسة الداخلية: تجلت عبقرية سنان بما بعثه في نفوس الاتباع، من حيوية

دافقة، ونشاط عظيم. وبما احيت من مثل، وحقت من انسجام ونظام وبما استطاعت ان تنعش من آمال زاوية، وأحلام خاوية، كل ذلك يجري بسنن وأصول، تحت عين الجيران الحاسدة وفي بقعة جميلة ولكنها صغيرة، ضيقة الابعاد.

غير ان سلطان سنان، وعبقريته، لم تجعل منه فاتحاً كبيراً يضم الممالك، ويكتسح الدول. ولكنه اكتفى بمحدود دولته. وصرف جلّ عناية، لتنظيم مرافق حياتها، واسعاد ابنائها، دون أن يخسر شيئاً من املاكه، أو ينال ما يذكر من املاك جيرانه. وكل ما فعله، أنه ضمن الهدوء والامن، ونشر السلام والعدل وحسبه فخراً ما توصل اليه بجهود كبيرة من استقرار الحكم، وهيبة الحاكم، وتدريب الفدائية، لدفع الخصوم عن التخوم. وادرك بغيرته أن عهد التوسع قد انتهى، وان حماية اتباع اسماعيل يتوقف على الدفاع المحكم لا الهجوم اليائس.

فعكف على بناء حياة اتباعه بناءً صلباً كصلابة عقيدته، متيناً صامداً صمود قلاع الدعوة، على أسس من الرحمة، والتعاطف، وسعة الصدر. ونهض بهذه المسؤولية على صورة تستدعي العجب، فأستعان على تربية اتباعه، بماله من سلطان نافذ في نفوسهم، وحب راسخ في قلوبهم، وهيبة استحوزت على جوارحهم. وانطلق كاللارد يعمل بصبر، ودأب، وجلد، طيلة ثلاثين عاماً، مخوفة بضروب متنوعة من المخاطر والعقبات، ولكنه كان واثقاً من النصر في جميع الميادين فبلغ ما توقع:

فنجت دولة راشد الدين في مصيف من خطر الفوضى، وبلوى التقسيم وعلل الحروب والمنازعات العائلية، كما لم تنج دولة أخرى في ذلك العصر.

كل ذلك بفضل سياسة سنان الداخلية وقدرته على تعريف شؤون الدولة وتوجيه الاتباع نحو البناء والعمل والاستعداد للخطر . فلم يفسح مجالاً للتذمر ولم يترك ساحة الا استغلها في تمكين سلطانه ، وفرض احترامه .

ومن أسباب توحيد الصف الداخلي ، أن سناناً لم يطلب من أتباعه المستحيل ، ولم يرغمهم على السخرة في ترميم القلاع ، ولكنه أيقظ في نفوسهم حب المجد ونهمهم الى الخطر الداهم ، وسلط عليهم سناء عبقرية الأخاذ ، فدفعهم للموت في سبيل دولته ، وعلى ثغورهم بسات الرضي والإطمئنان . فإذا قيسست عظمة الرجال بما يبعثون من حب العظمة في نفوس الاتباع ، فسنان من أعظم الرجال على الإطلاق . لأنه كذب بأحقاد قرمط ، وابن الصباح ، في حلق الخصوم فأخسرهم . وخلق من فتية مغامرین أقوى منظمة سرية في العالم .

وندر أن يوجد بين الحكام من يتوصل لفهم عقلية العامة ، وتسخير ميول الشعب وغرائزه ، والإفادة من ظروفه وعقيدته ، كما فعل سنان راشد الدين ، فالحياة المادية والروحية تخضع لتوجيه سنان ومساعدته ، وتسير حسب مصالح عامة الشعب وخدمة أهداف يمنية واضحة . وتتلخص في حماية الدعوة الأسما عيلية وصيانتها من الهدم والفناء ، في عالم ضاعته معالمه وطاشت سياسته ، وجمعت به أهواؤه لذا نظم الجمعيات السرية ورسم القلاع ، ونشر الأمن (٩) .

وبلغ سنان مرتبة القديسين في نظر الاسماعيليين ، لما امتاز به من شجاعة مع روية وإلفة في هيبة ، وصلابة في رحمة ، وقسوة على الخصوم ، وحلم

(١) انظر بحث الفدائية والقلاع في مكان آخر

واسع مع الاتباع ، مهما ندّ عنهم نحوه من أخطاء كما حدث في بداية حكمه
وكان يخلب ألبابهم بقواه السحرية ومعارفه الواسعة ، وطلعتهم المهيبة ونظراته
الحادة النافذة كسهام القدر . ولو قيّض له دولة أخوى ، لحظي بمكانة
من نوع آخر في التاريخ .

هذه الشخصية الخلابة ، حدث بعاصري سنان وأتباعه على السواء ،
أن ينسبوا له الخوارق ومعرفة الغيب ومناجاة الجماد ومحادثة الاموات كما
عزوا اليه معرفة السيا والسحر . منها مثلاً ما يروى عنه من معرفة ما دار في
أحد مجالس السمر في مصيف من التهم عليه واغتيابه وإيعازه لو كيده
بتوبيخهم وزجرهم (١) .

وما يمكن استنتاجه من هذه الرويات ، وما يعرف عن هذه الطائفة
وكبار دعائهم ، من تمسك بالحذر ومعرفة باستخدام المراسلات السرية ،
ومقدرة على التلاؤم مع الظروف ، أن سناناً كان قد بث في أنحاء دولته
ودول جيرانه شبكة من الخبزين السريين يرأسونه بواسطة النار والحمّام
الزاجل الذي مهّر في استخدامه الاسماعيليون مهارة فائقة تتمشى مع
خطتهم في الحذر والخيطة ومع ما تنسّم به دعوتهم من غلو في الاسرار ،
وإغراق في التكم . وفي المساء ، وعندما تغفو مصيف يخف سنان راشد
الدين ، الى قمة جبل مشهد ، أو يؤوب الى عرينه في أعالي القلعة ليتلقى
رسائل الانصار ، تحملها حمامات بيضاء من الشرق النائي أو الغرب القعي

(١) يمكن الاطلاع على مثل ذلك في مناقب راشد الدين
(مخطوط) وفي قصة جرجي زيدان عن صلاح الدين ، وفي قصة
« ورده العالم » الانكليزية .

فتقرع النوافذ بناقيرها المقوسة ، وتلمع عيونها في الظلام لتنبه شيخ الجبل
فيتلو الرسائل ، ويعكف على دراستها ثم يخبر من حضر من أتباعه ،
ويتناقل الناس ذلك عنه فيمسي عالماً بالغيب لديهم ؛ سيما عندما تتحقق
الاخبار فيما بعد (١) وهذا دليل قاطع على ذكاء هذا الحاكم وقدرته على
بناء الدول والحفاظ عليها أيضاً . ولقد جعل من مدرسة الكهف مركزاً
لتدريب الفدائية ومنظمات الاستطلاع السرية . حتى اذا بلغ طلابها مرتبة
الجدارة في عملهم بعث بهم ليرفعوا اليه أنباء قلاعه وأخبار أعوانه في الداخل
وخصومه في الخارج ، فلا ينحدر الى مزالق الخطأ والزلل في معالجة الامور
ووضع الحلول . ويجنب دولته الناشئة أخطار الفوضى وعلل الفساد ، الناجمة
عن الحلول المرتجلة ، والقرارات المبتسرة التي لاتنيرها بارقة من بوارق
الوعي والفهم والتبصر .

ولم يقف حذر هذا الحاكم النشيط وسهره ، عند حد تنظيم شبكته
السرية العجيبة فحسب . بل لم يكن ينقطع عن التجول والتطواف في شعاب
جبل البهرة ، متفقداً شؤون القلاع وأحوال الاتباع . « فكان يقضي أيام
الاسبوع متنقلاً بين القلاع والحصون ، ويخصص يومين للاقامة بجبل مشهد ،
حيث ينقطع للتأليف ، ورصد النجوم ، والتأويل ، ويكثر من الذهاب الى
شيزر وحصص وحماة والشام متخفياً (٢)

(١) يمكن الاطلاع على مثل ذلك في مناقب راشد الدين (خطوط)
وفي قصة جرجي زيدان عن صلاح الدين ، وفي قصة « ورد العالم »
الانكليزية .

(٢) عارف تامر - سنان وصلاح الدين - ص ٣٤

وهذا يؤكد بصورة جازمة ، الروح الميقظة المتوثبة التي تنطوي عليها
جوارح سنان راشد الدين ، الرجل الساهر على سلامة أنصاره ، بدأب وصبر وعزيمة .
لقد أدرك هدفه بوضوح وسعى لتحقيقه بقدم ثابتة مقرونة بالروية والحكمة .

فلم يكن له من غرض الا صيانة أتباعه ، وحمايتهم من فوضى النزاع الداخلي
وخطر الهجوم الخارجي . وجعل من كرامة الاسماعيليين وسعادتهم مبدءاً
وهدفاً ، لا يحيد عن تحقيقه قيد شعرة واحدة ، مهما كانت العقبات . ونصب
من نفسه رائداً مارداً يقود الخطى ، ويحث الهمم لبلوغ الاهداف . دون أن
يسمح لأية قوة في الخارج أو الداخل ، ان تنحرف به عن سبيله . وإذ أدرك نوايا
خصومه الاقوياء في الخارج ، ورغبتهم في ابتلاع دولته ، القائمة كالشجى في
الحلق ، عمد لحشد كافة إمكانياته المادية والمعنوية والشخصية ، لاعتقاده
بأن تأمين الهدف الاول وهو حماية أتباعه ، يتوقف بالدرجة الأولى على متانة
البنيان الداخلي ، وازدهار الحياة الاقتصادية ، وتقوية الروابط الروحية .
فنشر الأمن والهدوء ، مسلطاً على أقوال الناس وتصرفاتهم ، رقابة
واعية بصيرة (١) ، هدفها الإرشاد وفرض النظام ، وغرضه من ذلك ،
التفرغ للعمل الداخلي والخارجي .

وقد تمكن سنان بما بعثه من آمال عظام ، وثقة مطلقة بشخصه ، أن
يحرك هم أتباعه على العمل الدائب في جميع الميادين ، وأن يسير بهم في مراقب
التقدم والمجد ، طيلة ثلاثين سنة حافلة بجليل الاعمال : فنشر مدارس الدعوة
وبشها في أرجاء دولته ، وزودها بأكفأ الدعاة والمدرسين ، لينشئ جيلاً راسخ
الإيمان ، يعمل لإعلاء مجد الاسماعيليين في السلم والحرب ، هم زراعة الارض

(١) هذا ما يفهم من مخطوط « مناقب المولى راشد الدين »

وجفي الثمار ، والمشاركة في ترميم القلاع ، وتحسين الطرق ، وإنسال أجيال جديدة تتولى حمل الرسالة ، وصيانة الدولة .

ومضى سنان كالسهم النافذ في رسم الخطط ، دون أن يغفل إرهاب خصومه والفتك بهم عند الحاجة . فدرّب فرق الغدائية في مدرسة الكهف ليجرع أمراء الصليبيين والمسلمين (١) ضروب الموت الزؤام غصصاً وعلى ميعاد ، وليضمن لدولته الصغيرة فرص الحياة .

وتكرّ الاعوام حافلة بالجهد والعمل ، وجبل البهرة يرتفع في نعيم . بين جلال القلاع المهيبة ، وقوة الغدائية الرهيبة ، واغاني الريف الأخضر ، يتوج ذلك كله رضى سنان شيخ الجبل الوقور .

وتبدو الحياة بعد ثلاثين عاماً من الكفاح المتواصل لسنان ، جديدة بكل أنواع الرضى ، وكل وسائل المجد الدنيوي ، والغبطة الروحية .

فالقمم عالية تواكب النجوم ، والقلاع متأجّنة صامدة ، تحرسها عيون الانصار الساهرة . وظلال السيوف . واحفاد اسماعيل ، والمعز ، يشبون جيلاً أثر جيل ، يترسمون الخطى على هدي الدعوة وفي وجوههم أطياف الغد يسرون خلف القائد راشد الدين ، عبر درب شاق ، من التدريب والتعليم الى مراقبي الرجولة . وحياة مطمئنة وادعة ، على خلاف ما يحدث وراء الحدود من تخريب وتدمير تتحول معه حياة البشر الى جحيم لا يطاق .

فمن اولى بالتقديس ! من رجل بعث وقدة الجهاد والعمل ، في جسد اشرف على الهلاك ؟ ومن أحق بالتكريم من سنان البصري ، حامي الزمار

(١) يفهم من المصادر الغربية أن نشاط الاسماعيليين امتد حتى

فرنسا وانكلترا انظر حتى تاريخ سورية ج ٢ ص ٢٤٧

وسيد القلاع ! لقد أدرك أهل مصيف أن أصحاب « ألمات » يتجرعون
كؤوس الفشل ، ويرقبون النهاية الفاجعة ، شأن الفواطم في القاهرة . أفلا
يحذر بهم نصب القائد الملهم أماماً تحوطه هالة التقديس والعصمة ؟! لقد ،
مجد الناس القوة في جميع العصور ، واستولت مظاهرها على ألبابهم ، فهل
تعجب لماذا ارتفع سنان إلى هذه المرتبة السامية ، من ضمائر الاتباع ؟! وما مر
الاستقلال والانفصال ، عن قلعة « ألمات » العاجزة عن دفع الخصوم ؟!
إن البشر يتمسكون بالقوة ويتعلقون بالأقوياء ، وقد خسرت ألمات قوتها
فخسرت سلطتها على مصيف . لعل نحاح الرجل من أسباب خلوده وتجيده
وهذا بعض الدين تدفعه الشعوب ، للعظماء الظافرين ، غداة استسلامهم
لسلطان ألمات .

وتحت لواء سنان ورعايته وفي ظل عطفه ، وفي مغاني جبل البهرة ،
وخلف ستار الهيبة العسكرية ، والوجه الصارم للقلاع الحربية ، حفلت جمال
البهرة بأنواع متنوعة ، للحياة السعيدة ، والنشاط الرائع وغدت شواطئ
البحر مسرحاً لنشاط التجار الإسماعيليين ، ومرتماً لأعمال الصيد والملاحة (١)
يدفعون بالسفن إلى متن الموج ، باسم شيخ الجبل وبفضل سلطانه ، دون
خشية أو خوف .

وكان الناس في عهد سنان ، يشعرون بالأمن والاطمئنان ، فيندفعون
بوحى من العزيمة والرضى ، لزيادة الإنتاج ، وتوفير وسائل العيش الكريم .
ويتلونون غبطة بعزلتهم السرية الحميدة ، وانتظام أمورهم ، عندما يلقون
(١) يفهم من المراجع الغربية أن دولة مصيف كانت تلك اسطولا
تجارياً واسع النشاط .

بأبصارهم نحو تخوم الجيران الممزقة الالهاب ، بحراب العراك والتصادم .
وخيل لاتباع سنان ، وهم في ذروة الهدوء الداخلي ، ونعيم الحياة المنظمة
وفي قمة الظفر الخارجي والمجد السياسي . ان حلم الاسماعيلية الآفل بزوال
الفواطم ، وموت ابن الصباح ، لم يطو الى الابد ، وان بعثاً جديداً ينتظرهم
تحت سماء البهراء . ويدغدغ آمالهم اندحار الخصوم واحداً إثر آخر ، بفضل
قائد شجاع وسياسي محنك ورث مجد الفواطم ، وعبقريه ابن الصباح .

فهو مستودع علم ، وكنز روحي سخي ، ومصدر عسل ، وسيد مصير
الدعوة ، ينتزع لها النصر انتزاعاً ، دون ان يبرح مكانه وينزل الملوك عن
عروشها باشارة من بنانه ، ويحول الخذلان الاكيد ، الى ظفر اكيد عندما
يشاء . فالحياة اذا الى ازدهار ، واكاليل المجد في طيأت القد ، فما أجدرها
من حياة لولا اعتمادها على السيف ؟!

نهاية المطاف : زحف الشيب الى رأس سنان البصري ، وهو يشب الى
قمة المجد . متكبناً مرة على السيف ، وأخرى على القلم والفكر ، خلال ثلاثين
سنة . لقد اضطر اكثر من مرة ، ان يهجر عصا المعلم ، لينشهر سيف الفارس
وان يمضي من القصيدة العصماء الى الملحمة الحمراء ، ومن هدوء الفيلسوف
المتصوف الى ثورة الاسماعيلي المتطرف . فتحولت دولته على يديه الى معسكر
كبير ، وحدته العقيدة الجامعة ، وسلطة سنان وقوته السحرية وحفزته
للمشاطر نوايا الخصوم ، وخوفه من الهجوم . ولعل سناناً ادرك ما تنطوي
عليه حياة تبني على هذه الشاكلة ، وتستند الى القوة العسكرية وحدها ،
من اسباب الانحلال والموت ، بانفصام عوامل البقاء والتماسك ، ومبررات
الوجود . فجئناح للسلم وعاش على وئام تام في النصف الثاني من حكمه دون

ان يتخلى عن مذره وحيطته ، او يهمل العناية بالحياة الاقتصادية والروحية
وبذا ضمن لدولته كرامة الاستقلال ، وعزة الوقار دون ان يجعل دولته
تتخلى عن رواء الجلال وحرية الروح ، تلك الحرية الفكرية التي تفتحت عن
اكدياس من المخطوطات القيمة في منازل الاسماعيليين .

واقدر ارحقت سنوات الحكم العvisبة شيخ الجبل ، وهو ما ينفك ، على
عادته ، يروح ويغدو ، ليل نهار ، مطوفاً بين قلاع الدعوة في ثلة من خلص
اعوانه ، يوزع الحب والرعاية والارشاد ، متقدماً حرس القلاع ، ناعماً برأى
طفل يلغو بأمرار العقيدة ، وفلاح نشيط يغتصب الرغيف من الصخر
الاعجف ، وفدائي أمين يمتزج حياة الحُصوم ، ويموت بعدها قري العين (١) .
ستون عاماً تنيخ بكلمكلمها ، تحفل حتى الفيض بالجهد الماضي ، ويأخذ
الهرم سبيلاً الى جسد سنان وروحه . لقد بدأت ملامحة تتغير ، وسارع الشيب
في التسلل الى رأسه ، واخذت قامته المديدة تنحني تحت وطأة العام
الستين (٢١) وتهب رياح الخريف مبكرة على خلاف العادة ، ويؤوب راشد
الدين الى عرينه في قمة حصن مصيف ، مع نفر من أصحابه الاوفياء . حيث
كانت تنعقد المجالس والمؤتمرات ، وترسم الخطط ، وتتلئ آيات الوحي في
حلقات الانصار . وكما شهدت هذه الحجرة الوقورة حديث سيد القلاع
العذب ، وشعره الرقيق ، وحكمته الوافرة ، لتشهد بعدها السيد المطاع ،
جسداً هامداً ، يدلف الى قبره يهدوء ويرقى سفح جبل مشهد للمرة الاخيرة

(١) هذا ما يفهم من مخطوط (مناقب المولى راشد الدين) .

(٢) يلاحظ ان كثيراً من عظامنا لم يتجاوزوا الستين كالنبي (ص)

واي بكر وعمر .. الخ .

الى الذروة العالية ، تنفيذاً لوصيته ليقر في ظلال السنديان العتيق ، أبـد
الدهر . وتتلقت القلوب والعيون الى راشد الدين وهو يزحف نحو رسمه
فتفيض المدامع ، ويقول الناس للناس « أحقاً مات سنان » ويعرف الرفيق
الجواب ، عندما يرى دمعة كبيرة في عين رفيقه .

أتراة كان يفكر ، وهو يرد حياض الموت سنة ٥٨٨ هـ أي مصير قائم
كان ينتظر دولته التي عمل لها ثلاثين عاماً ؟! أم لعل دوره قد انتهى ، ولكل
امرى دور ، فأنصرف قانعاً بعزله المتفردة ، ومرقده الصغير ، يستقبل
وهو رهين القبر وفود الاحبة ، يرفعون اليه فروض التقدير والاكبار ،
ويجعلونه مزاراً ، ومصدر عون . كما كان وهو على قيد الحياة . ولا ير اليوم
ببالمهم أطيب من ذكراه ، كما لم ير في دولتهم عظيماً يضاهيه .

٦ - الفدائية : امتازت الدعوة الاسماعيليه بتطورها مع الزمن ، كما

اتصفت بشمولها وتكيفها مع المجتمعات البشرية ، فهي كغيرها من الحركات
في العصور الوسطى ، تؤكـد اهدافها الدينية ومثلها الخلقية ، وتبرر من
أجل ذلك استخدام جميع الوسائل ، لخدمة النظام السياسي والسلطة الدينية
ولو كان ذلك على حساب المبادئ والمثل ، ويؤكد ذلك معظم المؤرخين ،
وهذا ما جعل الحركة الاسماعيليه تدعم سلطانها السياسي بالفدائية الرهيبه

التي قدمت لشيوخ الجبل سلاحاً أعمدوه في صدور خصومهم في كنائس

الصليبيين وجوامع السلاجقة على حد سواء .

وهذا ما يفسر التهجم الشديد ، من جانب مؤرخي الغرب والشرق على
هذه الفئة خاصة ، والدعوة الاسماعيليه عامة . بيد أنه من الانصاف والعدل
بيان العوامل الفكرية والتاريخية ، التي دفعت بهذه المنظمة السرية النادرة
الى الوجود .

ولم تكن المنظمة القداثية الاسماعيلية ، بالأمر الغريب الفريد ، في تاريخ
الدعوة الاسماعيلية ، فكثير من اممر الحركة الاسماعيلية نادر المثال ،
متطرف فذ ، يميل الى الجدة والغرابة والغلو ، في ذلك العصر القلق .

والواقع ان القداثية ردة فعل سلبية عنيفة ، شنتها الحركة الاسماعيلية ،
على خصومها ، بعد ان شهدت قواها السياسية تنهار تباعاً ، لتألب الأعداء
وفتكهم المريع في بغداد وفارس والشام والجزيرة العربية بأتباع الدعوة .
فلم يكن بمقدورها أن تغفو على سكين القدر ، تشهرها الحركات المناوئة في
الشرق والغرب ، وكان لابد لها من رد العدوان ، ودفع التحدي ، وإذ لم
تسعها مواردها الهزيلة ، وجيوشها القليلة ، استخدمت ذكائها الوقاد ، في
تنظيم هذه الاداة المروعة الصارمة ، لتأييد سلطانها السيامي ، وترسيخه في
جبال البهرة ، آخر بقعة في الدنيا ، بعد ألمات ، يجرد فيها رب الدعوة ، من
على ذرى الجبل ، على مقربة من زرقة البحر والسماء ، حيث يحلو لفئة مغامرة
ثائرة شحذ الاسنة اللامعة ليوم عصيب .

وحاولت الدولة الاسماعيلية ان تتشبث بالحياة وسط صخب العواصف
وتطاحن الشرق والغرب على صعيد المادة والروح . فلم تجد جيشاً يرتفع الى
مستوى القوى المتصارعة ، ولم ترض لنفسها نهاية فاجعة ، دون أن تهرق من
دماء المعتدين ما يشفي غلة الصدى . ودفعها رعب قاتل ، وتجارب سابقة مع
العباسيين والسلاجقة ، الى تنكب طريق الدعوة السلمية والدفاع العلني ،
واعلان حرب خفية سرية يفتقر اليها الخصوم .

ومن الملاحظ ان الحركة عندما تلجأ لمثل هذه الوسائل من الحرب ،
تعلن فشلها الذريع ، وتبرهن عن عجزها عن نشر افكارها بالطرق السامية ،

وتأييد سلطتها بالوسائل المشروعة ، وهذا يعني انها في طور النزع الاخير ،
وكأنها تردد قول الشاعر وقد طاف به اليأس من نشر فكرته ساهياً . وإذا
السلم لم يقدر كخير فكن السيف او كن الجزارا .

ولم تكن هذه المنظمة التي تجنى عليها المؤرخون ، فسموا الاسماعيليين من
اجل ذلك بالحشاشين لتعيش في الفراغ أو تنبت في الصخر ، فالمجتمع العربي
يحملته ، انحدر في هذا العصر الى هاوية الانحلال والتفكك والعجز ، وجر
معه الى نفس المصير ، جميع الحركات ، والمذاهب ، والفرق ، التي نبتت في
احضانها . وكأن هذه الحركات ادركت ما ينتظرها في الغد ، فأعلنت
افلاسها بخروجها عن طورها السوي ، واندفعت في فورة غاضبة تكييل
خصومها الصاع صاعين ، وهي تشهد ضياع الآمال . وهجوم الغد الاسود
والمصير القاتم .

نظمت حركة القذائيين تنظيمها النهائي ، على يد الحسن بن الصباح في
فارس . فأصبح الاغتيال المنظم ، وسيلة سياسية شائعة منذ (٤٨٥ هـ)
عندما قتل الوزير السلجوقي نظام الملك ، بيد أحد القذائيين . وكان اغتيال
نظام الملك اول اغتيال سياسي هام ، ومطلع عهد جديد في العمل السياسي
يستند الى الارهاب السري مع القتال العلني والدعوة الفكرية . وترتب دعاة
المذهب الاسماعيلي في هذا الدور على سبع درجات : ١ - داعي الدعاة ،
٢ - كبار الدعاة لمساعدته ، ٣ - الدعاة لنشر الدعوة ، ٤ - الرفاق وهم
متبحرون في العلم ، ٥ - اللاصقون وهم من قبلوا المبادئ وظهروا بالطاعة والولاء
٦ - القذائيون وهم اهم الطبقات المذكورة في هذا العصر ، ٧ - المستجيبون
وهم عامة من دخل في المذهب .

وقد وصف ادوار براون ، تقلاً عن مار كوبولو الذي زار فارس في القرن السابع للهجرة ، الجنة التي انشأها الحسن ، واجرى فيها قنوات من الخمر واللبن ، كان يرسل اليها الخلفاء المحدثين بالحشيش ، ليمكثوا فيها زمناً ثم يمحون الى قصر الداعي ليزدادوا ايماناً به ، وهناك يلقنون أن العودة الى الجنة تقتضي التضحية وبذل النفس (١) . . الح .

ثم يكيل بعض الكتاب التهم جذافاً الى هذه الفرقة ، والى مؤسسها الحسن ، ويصفونه بالمروق والزندقة . . الخ معتمدين على بعض الروايات المفترضة ، أو الوثائق الضعيفة ، دون تمحيض أو درس ، وكما تزين لهم أهواؤهم وميوهم ، حباً في اسباغ الجاذبية والطرافة على كتاباتهم .

وما يخطر لنا للرد على هؤلاء هو ان الحسن ، قد اقدم على جلد ولده حتى مات أمام ناظريه ، لأنه شرب الخمر ، فهل يمكن ان يبيح الحشيش ويحلل الفسوق لاتباعه (٢) ؟

ولا بد من الاشارة الى ان ما قام به القداثيون ، نجم عن اعتقادهم العميق بأن ارواحهم مسجونة في اجسادهم ، المكلفة باطاعة الامام المطهر ، اطاعة تنتقل بهم الى الانوار العالوية (٣) . وفي سبيل هؤلاء الأئمة المعصومين ، قدموا ارواحهم رخيصة . ولا حاجة بنا للافاضة في سرد الروايات المختلفة ، لتأييد ما نيل اليه في قرارة نفوسنا . من تنزيه الدعاة عن هذه الوسيلة .

وحسبنا ما رجحه المستشرق الكبير (ايفانوف) ، وغيره من المختصين

(١) شاكر مصطفى : ج ٢ ص ٤١٨ .

(٢) مصطفى قالب : ص ١٩٣ .

(٣) كرد علي ، الخطط ج ١ ص ٢٦٠ .

بالابحاث الاسماعيلية . من ان كلمة (حشاشون) محرفة جداً من قبل خصومهم
واصلها على الوجوه التالية .

١ - (Assasant) (أساسان) ومعناها القتلة ، وهذه لفظة

كان يطلقها الفرنسيون الصليبيون على الفدائية التي فتكت بقادتهم وملاوكمهم .

٢ - عساسون : نسبة الى الحسن بن الصباح ، مؤسس الفرقة الحقيقية .

٣ - عساسون : يقضون الليالي في حراسة قلاعهم وحصونهم .

ولعل " المؤرخين المسلمين المعاصرين ، وعامة الناس . اشاعوا هذه اللفظة
استدكاراً لأعمال هذه الفرقة وحقاً عليها .

ومهما يكن من أمر ، فقد كانت هذه الفرقة اداة طيعة قوية ، في حراسة
القلاع وحماية الحدود . واخافة الصليبيين والمسلمين مغبة العدوان على
دولة مصيف .

ومع ما اشتهر عن الاسماعيليين من حوادث القتل ، يجب ان نذهب الى
ان ما اجترحوه ، لم ينشأ عن عقيدة دينية ، بل عن افراط عرف به رؤساؤهم

في نيل السلطة السياسية كما يقول (هوار) . وما كان القتل لديهم عن باعث

مذهبي بل سياسي (١) . وهذه الوسيلة اتاحت لهم فرص البقاء والاستمرار

في وسط عالم معادي ، وهيأت لشيوخ الجبل تنفيذ رغائبهم ، وتوطيد

سياستهم ، وفرض هيبتهم ، على الدول المجاورة ، برغم ما تتمتع به من
سلطان عظيم ومملك واسع .

وفي سبيل هذه الاهداف جملة ، قتلوا (بدغيش ، وآقسنقر ، ومودود
وجناح الدولة ، ونظام الملك ، وفخر الملك . . وغيرهم من امراء السلاجقة)

(١) كود علي ج ١ ص ٢٦٥ .

كما فتكوا (بالخليفتين العباسيين الراشد والمسترشد ، وحاولوا اغتيال صلاح الدين الايوبي) . وقد نالوا من الصليبيين كثيراً ، كما نالوا من المسلمين ، وهذا ما حدا بالمؤرخين للتأكيد بأن المحور الاعظم الذي تدور عليه الباطنية هو مسائل الملك والسلطان ، « واعتبارهم جمعية سياسية ترمي الى اقامة ملك » (١) .

وهذه الفرقة ، التي دوخت الملوك ، وأنزلت الرعب في قلوب الصليبيين ، نظمها الحسن بن الصباح . واستخدمها في سبيل النجاح سياسته ، ولم يتورع في تحقيق اغراضه السياسية ، عن قتل العلماء والوزراء من اتباع المذهب السني (٢) ، ولعل هذه الاعمال الخارقة ، وما امتاز به افراد هذه الفرقة من الشجاعة والاقدام ، اوهمت البعض بأنهم يتعاطون الحشيش ، فيمتثلون شجاعة ، ويفقدون وعيهم وسيطرتهم على اعصابهم ، فيندفعون للقيام بتلك الاعمال المدهشة .

ولا ريب ان أولئك المؤرخين ، وقد اخطأوا الرأي ، فالوا مع الهوى رصدوا الاشاعات . دون ان يدور بخلدكم ان الايمان الراسخ ، والاعتقاد المتين بعصمة الأئمة لدى هذه الطائفة ، يوجب على المريدين التضحية بكل شيء في سبيل مرضاة الامام . ولو كلف المؤرخون انفسهم بعض الجهد ، في دراسة العقيدة الاسماعيلية لأدر كوا على الفور ان « طاعة الامام فرض وسبيل النجاة ليوم الفصل والعرض » (٣) .

وقد اقتبس شيوخ الجبل في مصياف ، تنظيم فدائيتهم ، عن الحسن بن الصباح .

(١) كود هلي ج ١ ص ٢٦٥

(٢) مصطفى غالب ص ١٩١ وكود هلي .

(٣) هذا ماورد في كتاب احد الأئمة ، انظر غالب ، ص ١٩٥

وبذلوا عناية كبيرة في تدريب افرادها في مدرسة الدعوة في الكهف (١) ، وعملوا على تلقين افرادها ، منذ الصغر ، مبادئ الدعوة وأصول العقيدة ، وجهدوا في تنشئة جيش الفدائية على الطاعة العمياء والانقياد الكلي لارادة شيوخ الجبل ، دون ان يهتموا بتعليمهم اصول الجدل والمناقشة ودراسة الفقه الاسلامي . كما دربوهم على استعمال المسكبات السرية في اتصالاتهم الداخلية والخارجية . وابلغ شيخ الجبل عما يجري في امارته وخارج الحدود ، وعند الصليبيين في الغرب والمسلمين في الشرق . لاعداد العدة ومجاهدة الطوارىء ببصرة وحكمه .

ومن غريب الامور ، أن شيوخ الجبل في مصيف ، اذ ركوا قيعة الجاسوسية الدولية ، وفطنوا لأساليبها فعملوا على قرين الفرقة الفدائية على مختلف انواع الاسلحة ، وضروب القتال ، كما لقنوا افرادها العلوم والفلسفة وعلومهمقات اهل البلاد المجاورة ، وفهم مذاهبهم واديانهم . فبلغوا بذلك درجة عظيمة من المهارة ، وشكلوا شبكة خطيرة ، واسعة الاطراف . تحيك المؤامرات ، وتنفذ الاغتيالات بنجاح عجيب ، وتحمي الحصون والقلاع وتسهر على الامن والنظام ، آناء الليل واطراف النهار . وتبلغ شيخ الجبل المتربع على سدة الحكم ، عن كل ما يجري ، وتنفذ له ما يشاء وبواسطة هذا الجيش الصغير فرض شيخ الجبل ارادته على الجميع .

٧ - قلاع الدعوة . اقتضت ضآلة المساحة ، وقلة الأمن في مدن العصور الوسطى ، أن يكون لكل مدينة قلعة لحمايتها من المعتدين والدفاع عنها من

(١) انظر عارف تامر ، سنان وصلاح الدين ؛ ومناقب راشد الدين (خطوط) . م . ل

المغيرين ، كذا كان الحال بمصياف وغيرها من قرى جبل البهرة ، حيث جرت العادة حتى أواخر العصر الوسيط ، أن تنفق المدينة - أية مدينة على تقدير المؤرخ بيرون - ما لا يقل عن خمسة أثمان ميزانيتها العامة ، في حفظ الأسوار وإعداد المعدات للحرب والدفاع ، لأن الغارات لم تنقطع ، بسبب الحلات على الحدود الادارية ، أو بسبب العداوات القديعة ، والضغائن المتوارثة . حتى أصبحت الجيرة بحد ذاتها من أقوى العوامل في إثارة الاحقاد والضغائن الهاجعة (١) .

وحسب الظروف أنها دفعت حملة الدعوة الاسماعيلية المضطهدين ، الهاربين من مقاتل دمشق وفلسطين ، ومجازر العراق ومذابح حلب وفارس ، حسب الظروف ، أنها دفعت بهم الى الاستقرار في جبال البهرة ، الواقعة بين عدويين لدودين ، أسهم كلاهما بنصيب وافر في القضاء على دولة الفاطميين . فلم يكن وضع الاسماعيليين العاصف الا أن سعر ناراً كانت لها في القديم ، بدليل أنها حولت الفدائية الى منظمة حطيرة غداة دخولها النضال وحرصت على امتلاك الجبل الحصين والقلاع التي تتوجه معتمدة على فدائيتها الرهيبة وقلاعها المهيبة ، وشيوخها الدهاة ، في شق طريقها نحو العظمة والظهور . وغدت دولة مصياف بفضل هذه العوامل عنصراً هاماً في السياسة الدولية ، وأصبح شيخ الجبل ، سيد القلاع والحصون شخصاً مرموقاً وشعباً مرمعاً ، مجرد ذكره يثير رعدة الملح والخوف في أوصال ملوك عصره ، الصليبيين والمسلمين معاً .

وقد تمكن شيخ الجبل ، باستيلائه على منطقة جبل البهرة الخافضة بالقلاع

(١) فيشر ، تاريخ أوروبا في العصر الوسيط ج ٢

البيزنطية من تأمين الدفاع عن دولته ، وصيانته أتباعه ومواطنيه من خطر
الغزوات التي شنّها جيران المنطقة الأقوياء ، وتراجعوا يجرّون أذيال الخيبة .
بعد أن وقفت بوجههم قلاع الدعوة ، وصمدت لهم صمود الراسيات ،

ومما يلفت النظر أن الدعوة الاسماعيلية كغيرها من الحركات ، لم تلجأ
لِلحصون والقلاع لحماية أنصارها الا عندما أعوزها الجيش الجبار الذي
امتلكته في أيام عزها الغابر ، ثم تصومت تلك الامجاد تعزم الدول على مرور
الايام ، فجاهد الاسماعيليون جهاداً عنيفاً لامتلاك الحصون والقلاع ، حتى
بلغ عدد قلاعهم في زمن الظاهر بيبرس « من طرابلس الى صيدا الى حلب
حتى حوران ، سبعون قلعة ، أهمها قلعة صهيون (١) .

ولا يغرب عن البال ، أن القلاع التي لعبت الدور الاول في هذا العصر ،
هي قلاع الدعوة الاسماعيلية المنتشرة في جبل البهرة . « وهي سبع قلاع ،
لاتسمى منعة ولا تراحم حصانة » (٢) . ويجعلها ولم الصوري المؤرخ
الصليبي ، عشر قلاع . يضيف اليها عارف تامر قلعة أخرى وهي . مصيف
المرقب ، القدموس ، الخوالي ، الكهف ، صهيون ، العليقة ، المينقة ،
أبو قميس ، المهالبة ، الرصانة (٣) .

ولا يسعنا في هذا المجال الا الإشارة إلى أن القلاع ، المعروفة لدى
المؤرخين بقلاع الدعوة الاسماعيلية ، والتي الفت فيما بينها أمانة شيخ الجبل

(١) كود علي الخطط ، ج ٦ ص ٢٦٢

(٢) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٤ ص ١٤٦

(٣) عارف تامر سنان وصلاح الدين ص ٣٢

لم تكن تشمل قلعة المرقب (١) ، ولا قلعة صهيون ، كما يقول السيد عارف تامر . إذ كانتا تابعتين للصليبيين حتى جاء صلاح الدين ، وانتزع صهيون وتسلمها بالأمان على شروط تشابه شروط تسليم القدس سنة ٥٨٤ هـ (٢) .
 بيد أن هذا لا ينقض ما ذكرناه سابقاً ، من استيلاء الاسماعيليين ، على سبعين قلعة في بلاد الشام ، تعيش في ظلال الصليبيين والايوبيين في وقت واحد . ولعل حصناً صهيون والمرقب ، خضعتا للصليبيين بعد معارك وخلافات مع الاسماعيليين . وتعرض هذان الحصنان بسبب موقعهما على الحدود المتاخمة للصليبيين لأطباع هؤلاء . كما تعرض حصن أبوقبيس لنفس المصير لوقوعه على الحدود الاسماعيلية - الايوبية فأصبح تابعاً لدولة صلاح الدين الايوبي .

وبعد وفاة صلاح الدين ، قسمت مملكته بين أفراد البيت الايوبي ، فملك عثمان بن الداية ، حصن شيزر وحصن أبي قبيس . واستولى ناصر الدين ابن كورس على حصن صهيون وحصن برزية (٣) سنة ٥٨٩ هـ .
 وينذكر الاستاذ كرد علي : أنه كان بأيدي الاسماعيليين بالشام ثمان قلاع سنة ٦٦٢ هـ ، وهي قلعة الكهف ، والعلبة ، والقدموس ، وخواوي ، والمينقة ، ومصيف ، والرصافة ، « والقلعة » (٣) ، وهذا يؤكد رأينا في مستهل هذا الحديث ، من ضياع بعض القلاع الاسماعيلية بمرور الزمن وضما للدول المجاورة ، في الفترة السابقة لتأسيس دولتهم ، وفي الفترة التي تلت

(١) كرد علي ، الخطط ج ٢ ص ٨١

(٢) كرد علي الخطط ج ٢ ص ٦٤

(٣) أنظر كرد علي ، الخطط ج ٢ ص ٧٤ لايدكو « أبو قبيس »

عصر القوة . والواقع أن الاسماعيليين بسطوا سلطانهم ونفذهم على هذه القلاع بالتدريج ، كما خسروها بنفس الطريقة ، عندما اعتراهم الوهن ، وانفصمت بينهم أواصر الوحدة .

شرع الاسماعيليون ينتشرون في هذه المنطقة ، منذ زمن متقدم ، يرقى الى القرن الثاني للهجرة ، وتحول دعائهم الى قلاع هذه المنطقة ، وقرأها ودساكرها ، يمشون الدعوة بهدوء وتكتم ، حتى أشرف القرن الخامس على نهايته ، وطورد الاسماعيليون في العراق وفارس وشردوا . فأخذوا يهرعون الى سورية ، املاً بانتجاع بقعة نائية لا يبالون فيها بضغط أو عدوان . ولكن أملهم تبدد وما لبث أهل حلب ودمشق خاصة . أن أدركوا خطر الاسماعيليين لتزايد عدد أتباعهم ، واتساع نفوذهم . فدبروا لهم المؤامرات وفتكوا بعامتهم ، حتى قتل في دمشق وحدها : عشرة آلاف كما يقول ابن الجوزي . عند ذلك رمى الاسماعيليون بأخسر سهم في جعبتهم . فولوا وجوههم شطر جبل البهرة الحافل بالقلاع والحصون البيزنطية (١) : التماساً للأمن والسلام والحرية ، في بقعة حصينة ، مهد لهم فيها دعائهم منذ زمن طويل ، وكان الاسماعيليون قد تسربوا الى هذه المنطقة منذ قرن . ولكنهم الآن شرعوا في الزحف اليها جماعات جماعات ، همها الوحيد النجاة من ظلم السلاجقة في الداخل ، وعدوان الصليبيين في الساحل .

فنفروا من الشرق والغرب ، وأعملوا الحيلة والذكاء في انتزاع الحصون من أمرائها . فاشترى الداعية أبو الفتح الاسماعيلي حصن القدموس ، من صاحبه ، سيف الملك بن عمرون سنة ٥٢٥ هـ وجعله قاعدة للتوسع والاستيلاء على

الحصون والقلاع المجاورة ، فاحتلوا الخواري ، والكهف سنة ٥٣٢ هـ ،
ومصياف سنة ٥٣٥ هـ ، والمينقة سنة ٥٤٦ هـ . وبذا مكثوا لأنفسهم في جبل
البرة ، وبدأ نجم مصياف في صعود ، بينما انحدر نجم « الموت » نحو
الأفول والموت .

وعاصمة قلاع الدعوة هذه ، أصبحت في عهد الدولة الاسماعيليه ، قاعدة
شيوخ الجبل ، يرسلون منها أفواج الفدائية ، ويستقبلون فيها الوفود المسلمة
والصليبية والبعثات الدبلوماسية . كما يتلقون عند أبوابها الغزاة والفاطحيين .
وقد حظيت قلعة مصياف بهذا المركز الممتاز بين قلاع الدعوة ، لتوفر
الامكانيات البشرية والاقتصادية ، ولموقعها الاستراتيجي ، وهي كالحارس
الأمين عند مدخل جبال البرة التي تغص بقلاع الدعوة ، تتحكم بالمرات
الجبلية الذاهبة الى بانياس وطرابلس وتنتصب كالمدافع العنيد ، على مشارف
جبال البرة ، لترد عنها عواصي الايام ، وتدفع عنها عواصف الغزو والمدمرة
وتعود أهمية هذه القلعة لمناعة موقعها اكثر مما تعود لفخامة بنيانها وروعته (١)
وكم مرت بها سنابل خيل المغيرين دون ان تنال منها شيئاً ، وبقيت صخرة
عصية ، تتكسر على صمودها جحافل الغزاة ، حتى تجنّبها الفاتحون فلم يحفرهم
الطمع لاحتلالها .

وهذا ما يفسر لنا ، غموض أخبارها ، قبل العهد الاسماعيلي وبعده . فقد
تمتعت قلعة مصياف بفضل هذا الموقع بعزلة وحصانة طبيعية جعلت
الحوادث والحروب تدور من حولها ، وتتردد ، خلال اخبار تلك الحروب
التي لم تنقطع خلال عدة قرون ، اسماء القلاع السورية عشرات المرات ،

دون ان نجد لقلعة مصياف الا الاشارات العارضة ، والاخبار الضحلة ، التي لا تنتفع غلة الباحث الدارس .

وما ساعد على قيام مصياف بدور الزعامة السياسية في المنطقة منذ القديم بالإضافة لمرکزها الحربي الممتاز ، وقوعها في وسط منطقة خصيبة ، غنية بالكروم والخضراوات والزرورع ، حافلة بالينابيع . فقد وهبها الله من الجمال والثروة الاقتصادية ، ما جعلها تنبوء مكاناً مرموقاً بين المدن ، مما اغرى مؤرخينا القدماء كالفلقشندي ، وياقوت وأبي الفداء على وصفها بأجمل الاوصاف والنعوت . « فهي بلدة جلييلة ، ولها قلعة حصينة في حلف جبل اللكام (١) ... وبها انهار صغار من اعين ، وبها البساتين والاشجار ، وهي قاعدة قلاع الدعوة » (٢) . وما زالت مصياف كعهد الاسلاف بها ، جنة صغيرة يطيف بها سفح مخضوض ، تتشابك فيه أغصان السنديان والريحان ، وتنسبط كروم العنب والتين ، حيث يعيش القرويون عيشة ريفية مشرقة الالوان .

وكان سكان المناطق المجاورة يقصدون مصياف ، ايام السلم للتجارة والاجتماع ، واولقات الحرب للتحصن والدفاع في العهد الذي نتحدث عنه . وإذا انقضت مهمتها الدفاعية ، بأنقضاء العصور الوسطى ، فقد بقيت مصياف البويرة التجارية الهامة لأبناء المنطقة المجاورة ، يحدون عليها بثمرات الريف لتجود عليهم بثمرات الحضارة المعاصرة .

(١) جبل اللكام بالعربية (من السريانية « أوكاما » أي أسود) وهو يعني به هنا جبال النهرية « البهراء » .

(٢) الفلشندي ، صبح الاعشى ج ٤ ص ١٤٦

وكذا جرت المقادير، فتعاونت العوامل الطبيعية، والحربية والاقتصادية
على نشوء مصياف وازدهارها ، منذ العصور القديمة . واخذت تنمو بمرور
الايام فبنيت لها قلعة دفاعية في القرن الخامس للميلاد ، على ما نرجح ، بناها
البيزنطيون الغرباء لحماية نفوذهم ، وسلطانهم ، من نقمة السكان وثورتهم ،
أو للدفاع عن المنطقة ضد عدوان خارجي عند الحاجة . واصبحت مصياف
بعد الفتح العربي ، كبقية المدن السورية ، جزءاً من الوطن العربي الكبير
وفلذة من بلد واسع تشاركه متعة الظفر ، وغصة الفشل . وعرفت هذه البلدة
لدى الكتاب والمؤرخين ، بثلاثة أسماء .

فهي : ١ - مصياف ، لدى (ياقوت ، القلقشندي ، النويري ، المقرئزي
ابو الفداء ابن تغري بردي) .

٢ - ومصياث ، بالثاء ، لدى (ابن القلانسي ، ابن الاثير ، ابن سعد ،
المقدسي) .

٣ - رمصيا ، ومصيات ، لدى ياقوت أيضاً (١) ، أما مصيا ، فقد
وردت في الموسوعة الاسلامية باللغة الفرنسية ، وهذا خطأ مرجعه ، كما
نرجح ، الى خطأ في قراءة الكلمة العربية ، التي تنتهي بـ تاء ذهبت نقطتها ،
فنقلت الى الموسوعة على انها مصيا .

ومن الجدير بالذكر ان ياقوت يضيف الى قوله السابق « ان البعض
يسمونها مصياف ، غير ان اهل الريف لايزالون يطلقون عليها « مصيا »
ويرى فان برشم ان : مصيا ، ومصيا قد اشتقتا من لفظة مصياث ،

(١) - ميشيل لباد ، تاريخ قلعة مصياف .

وان هذا الاشتقاق دارج بالعربية (١) ، ولكننا نيل ~~الجميع~~ التسميتين ، المتعارف عليهما لدى عامة المؤرخين والناس وهما (مصيف ، ومصياد) لأننا نجد لكلمة مصيف معنى يطابق شروطها الطبيعية ، ومناخها ، وينطوي على فحوى مصيف ، الذي تحول الى مصيف ، على السنة الناس ، ولا تستبعد ايضاً تسمية هذه البلدة بمصياد ، لوجودها في منطقة حرجية مشجرة ، تؤهلها لأعمال الصيد على اختلاف انواعه ، وهذه التسمية ليست جديدة في اللغات السامية القديمة ، فقد سميت صيدا بهذا الاسم ، لأنها مركز لصيد السمك .

وقد مرت هذه البلدة بعهود تاريخية متعددة ، فخضعت في العهد العربي : للأمويين ثم للعباسيين . ونالت شيئاً من الاستقلال الذاتي عندما أخذت الدولة العباسية بالضعف والانحلال ، حتى جاء سيف الدولة الحمداني وضمها الى دولته فيما بين سنة (٣٣٦ - ٣٥٩ هـ) . ثم شملها الحكم البيزنطي ، في عهد سعد الدولة بن سيف الدولة الذي سلمها للبيزنطيين بمعاودة مشيئة منذ سنة (٣٥٩ - ٣٨٥) . وبعدها خضعت للنفوذ الفاطمي في مصر ، وللأمراء المستقلين حتى استولى عليها الاسماعيليون سنة (٥٣٥ - ٦٦٨ هـ) وجعلوا منها عاصمة لدولتهم المستقلة ، ومر كزاً لنشر دعوتهم وبث فدايتهم . وبعد انحلال هذه الدولة ، أصبحت مصيف ولاية هامة من ولايات المماليك (٢) وفتح الاسماعيليون فيها بحرية واسعة ، واستقلال ذاتي . وأخذ مركزها الاقتصادي يتدهور بتجويء العثمانيين ، ثم انتعشت بجلاء العثمانيين ، وغدت

R . Dussaud . La Syrie Antique (١)

(٢) انظر القلقشندي

مر كز منطقة . وظلت حتى الوقت الحاضر ، معقلاً من معاقل الاسماعيليين المشهورة في العالم .

وصفوة القول ، إنه ليصعب على السائح - وهو يجيل طرفه في ريف البهراء الجميل - أن يصور لنفسه ، كيف كانت تلك القلاع التي لم يبق منها الا أطلال موحشة ورسوم دارسة ، قطب الحياة في الاقليم ، وحلقة من حلقات الاجتماع والتدريب والدرس ، ومرقداً للسلام والأمن . ومهبطاً للعيش الوادع تحت رايات شيوخ الجبل ، ماينوف على القرن ، وسط موج الاحداث .

٨ - دور الانحلال (٦٠٠ - ٦٧٠ هـ)

كان سنان شيخ الجبل طرازاً من الرجال الذين يعرفون كيف تبني الدول فتحمي أمام قوتهم جميع العقبات ، وتتلاشى عوامل الانحلال والضعف . لتبرز دفعة واحدة بمجيء خلفائهم ، سيما اذا كانوا دونهم كفاءة ومقدرة . كما حدث في فجر التاريخ الاسلامي . وكما يحدث في كل عصر ومصر . وإذا أصبح سنان أكثر سلطة وأنفذ إرادة من أعظم ملوك عصره ، يخلفه ابنه الحسن وأشخاص آخرون ، لا يملكون من أسباب الشهرة والقوة ما يدفع المؤرخين لتدوين أسمائهم على الاقل ! ؟ .

فلم تنجب دولة مصياف رجلاً نظير سنان ، يستجمع صفات الحزم والعقل ، ينشئ الدول بشخصه ويوجد الاخوان ويدفعهم للتعاون ، بزياء الخلقة والعملية ، وتأثيره الروحي وإرادته الحديدية . فما لبث عقد التعاون والوحدة الداخلية ، أن شرع بالإنفراط ، وأخذت أواصر التآزر والإلفة تتحل . عندما انصرف خلفاء شيخ الجبل الاكبر سنان ، عن خطته الرامية

الى توحيد الصف الداخلي لمجابهة الخطر الخارجي . بيد أنه لم يكن بمقدورهم أن يفعلوا أكثر مما هيأته لهم ظروفهم وإمكانياتهم ، لأن التعاون والاتحاد ليس من طبيعة العصر الوسيط ، والنظام الهدوء وأمور غريبة ، قد تفرضها وتوطدها شخصية نادرة ، كشخصية صلاح الدين أو سنان ، ولكن ذلك يدوم أجلاً ، ويرتبط بحياة تلك الشخصيات في بقائه وفنائه .

ومن الجدير بالذكر أن خلفاء سنان ، تمكنوا من استغلال الظروف الدولية ، في الإبقاء على استقلالهم ، وعاشوا أكثر من نصف قرن ، ينعمون بعزلتهم وحریتهم ، بينما أخذت الفوضى تنشب في مملكة الناصر صلاح الدين في الشرق بعد وفاته ، وينصرف خلفاؤه لمتنازعاتهم انصرافاً يشغلهم عن متابعة العمل العظيم الذي بدأه صلاح الدين وتأخذ على الجانب الغربي لدولة مصياف ، ممالك الصليبيين نصيبها من أمراض العصر ، القمّة على الشقاق والتفرق والتخاصم وفيما يعكف جيران مصياف على الشقاق والتنازع ، تضي دولة مصياف في طريق خاص ، لا تعكر حياتها الاحتمالات متقطعة متباعدة ، يشنها الصليبيون في الغالب ، وخلافات داخلية عادية .

ويركن شيوخ الجبل في نهاية هذا الدور ، الى الهدوء ويميلون لإهمال مقومات الحياة في دولتهم ، تلك المقومات التي اعتمدت عليها مصياف في صيانة استقلالها خلال الايام السالفة ، وأهمها القدائية ، والحصون ، وسياسة شيوخ الجبل الماهرة .

وعلى الرغم من موادعة الايوبيين في الشرق ، وفرض السلام بقوة السيف على الفرنجة في الغرب في أوائل هذا الدور (١) ، برغم ذلك كان الامل كبيراً باستمرار هذه الدولة ، حتى بعد زوال التوازن الدولي بين قوة المسلمين

(١) أنظر بحسب السياسة الخارجية في الفصل الثالث

والفرنجية وا لافادة من منازلهم ، في البقاء . وكان من الممكن أيضاً المحافظة على الاستقلال مدة أطول ، لولا تنازع شيوخ الجبل في نهاية هذا العهد وتعاونهم مع خصوم دولتهم ، وإغفال العمل السياسي المنظم وتدريب الفدائية ، وتحصين الحصون .

وكل ما فعله أبو الفتوح مجد ، تجاه الخطر المغولي الزاحف من مشارق الامبراطورية العربية ، أن بنى سوراً هزيلاً (١) يحيط بمصياف لحمايتها . ولما بلغ الجيش المغولي تخوم مصياف ، هدد شيخ الجبل وأعوانة بمصير إخوانهم في فارس ، وخليفة بغداد في العراق ، فعمد بعض أعوان شيخ الجبل ، كما يقول ابن ميسر ، إلى تسليم أربع قلاع - بما فيها مصياف ، إلى التتر . فلما غلب التتر أمام الجيوش المصرية السورية . استعاد القلاع شيخ الجبل وقتل أصحابه الذين سلموها (٢) ، ولكنه شعر بالوهن يسري في أوصال دولته وبالنزاع يمزق وحدتها . وأدرك أن الظاهر بيبرس خليفة قطز ، لن يحجم عن احتلالها بعد تراجع التتر ، والخلال الفرنجية . فجنح للسلم وقبل بدفع جزية سنوية قدرها مائة ألف درهم . وانتهى بذلك دور مصياف ، في التاريخ كدولة مستقلة تلعب دورها في السياسة الدولية ، لتعُد ولاية مستقلة من ولايات المماليك .

(١) دون هذا الخبر على باب من أبواب السور ، ويذكر صاحب الدليل الأزرق أن بناء السور تم سنة ١٢٤٩ م - ٦٤٧ هـ (أي قبل وصول التتر إلى سورية بعشرة أعوام) .

(٢) كره علي ج ٢ ص ١١٩

الفصل الثالث

السياسة الخارجية

أ - الأهداف : بما يساعد على فهم السياسة الخارجية للدول ، معرفة أوضاعها العامة ، التي تتأثر بالأوضاع الجغرافية ، والاقتصادية ، والتاريخية .

فلكل دولة في التاريخ أهدافها الخاصة المتولدة من ظروفها الجغرافية ، وحياتها الاقتصادية ، وتطورها التاريخي والروحي عبر الزمن . وفي سبيل توضيح طبيعة العلاقات السياسية لدولة الاسماعيليين في مصيف ، وما يطرأ عليها من تحول وتغيير ، يجب ادراك الأهداف الأساسية والعوامل المسيطرة في توجيه دفة السياسة الخارجية ورسم خطوطها العامة ، كما ينبغي فهم الشواغل السياسية . والنوايا التوسعية لجيرانها ، لأن المواقف السياسية تتغير وترتبط بما يتخذها الخصوم والاصدقاء ، من مواقف تجاه الدولة المعنية .

١ - لقد جعل شيوع الجبل عامة وسنان خاصة ، من مصلحة الاسماعيليين وكرامتهم مبدأ عاماً وهدفاً رئيسياً لا يحيدون عنه . ونصبوا انفسهم حماة لهذا الهدف ، الذي يتلخص في صيانة الاسماعيليين وحماية حدودهم من كل عدوان ، وسخروا جميع الوسائل لتأمين هذا الهدف ، واستغلوا جميع القوى لخدمة هذا الغرض : فرموا الحصون ، وجندوا الشباب ، ونظموا الفدائية

فهادنوا الصليبيين تارة ، والمسلمين تارة اخرى . وخاصوا الدولتين في كثير من الاحيان كل ذلك من أجل بقائهم واستمرار كيانهم .

ولعلنا نلاحظ أن تحول العلاقات السياسية وتطورها مع الزمن ، ليست صفة خاصة بهذه الدولة الصغيرة القوية ، التي اهتمت بالمروق . . . وما شابهه لانها تعاونت مع الصليبيين (١) فلقد تعاون مع الصليبيين حتى ابناء صلاح الدين بعد وفاته (٢) ومن قبل ذلك ، انحرف كثير من أمراء السلاجقة واستعانوا بالصليبيين ضد خصومهم في الداخل (٣) ومتى كانت العلاقات السياسية خاضعة للمثالية ؟ بل وكيف لانضع الامور في مواضعها من الزمان والمكان والحياة ؟ وهل ننصف التاريخ والواقع عندما ننحى باللائمة على فئة مضطهدة تتعاون مع الدخلاء وننسى تعاون غيرها في نفس الوقت ؟ !! ان الكامل ابن اخي صلاح الدين يسلم القدس لملك صقلية مقابل مده بالعون ضد ابناء عمه الايوبيين (٤) .

وما يسترعي الانتباه ، ان شيوج الجبل ، أدر كوا قيمة وضعهم الجغرافي . وتوصلوا الى الاعتقاد ، بضرورة المحافظة على التوازن الدولي ، بين الدول المتحاربة ، وبذلوا جهوداً كبيرة في هذا السبيل ، جعلهم يتعاون مكاناً مرموقاً في السياسة الدولية في الشرق العربي ، على الرغم من صغر

(١) انظر ابن قيمه . والاستاذ كود علي في كتابة خطط الشام

(٢) انظر كود علي ج ٣ ص ١٠٣ : انظر فيليب حتى ج ٢ ص ٢٤٢

انظر ابن الاثير ، وابي الفداء .

(٣) انظر الخطط ج ٢ ص ١٢ وغيرها .

(٤) ابو الفداء ج ٣ ص ١٤٨ وابن الاثير ج ١٢ ص ٣١٥ .

دولتهم ، وقلة انصارهم . وهياهم لقيادة دولة مستقلة آمنة ، على مقربة من
من القوى المتصارعة . وكان هم هذه الدولة الوحيد هو التمكين لأنصارها في
جبال البهراء ، واثاحة فرص العيش ، والبقاء اغزة كرماء مهمها كانت
الوسائل ومهما تنوعت العلاقات وتطورت . وكان إدراك شيوخ الجبل ، في
محله ، فعندما زال التوازن الدولي وانتصرت القوى الاسلامية على الصليبية ،
زال استقلال الاسماعيليين وانهارت دولتهم وشيكا على يد بيمبرس .

ومن ابرز شيوخ الجبل وأبعدهم أثراً في السياسة الدولية ، سنان راشد
الدين ، والحق يقال : ينذر ان يوجد بين الحكام من افاد من وضعه ، وصلاحه
عقيدة اتباعه ، كما افاد سنان . الذي نظم الفدائية تنظيماً دقيقاً ممكنه من
فرض سياسة القوة ، وجند الاتباع للدفاع عن الحدود ، وحسن القبلاع
وشحنها بالحرس . ولم يختلف عن بقية الشيوخ في تقديم مصلحة اتباعه على كل
مصلحة اخرى . وقرن وسائل الارهاب ، والقوة ، والعنف ، بدبلوماسية

ماهرة ، قوامها الضرب بشدة على أقوى ملوك العصر ، والتلويح بالخناجر
المسمومة . مع الميل الى المسالمة والمهادنة ، ليبقى سيد الموقف يفرض شروطه
دون ان يدعن او يستسلم لسلطة جيرانه الاقوياء وقمكن بهذه الوسائل من
ارغام الصليبيين والمسلمين ، على مهادنته وكسب وده ، دون ان يخسر الا
نفراً قليلاً من فدائيه . وعددأ ضئيلاً من جنده لا يقارن بعشار ما كانت
تخسره الدول لصيانة حدودها وحفظ هيبتها .

٢ - ويمكن القول ان سياسة نور الدين وخلقه صلاح الدين . . ثم المماليك
كانت تهدف الى توحيد الجبهة الاسلامية المفككة ، وتوحيد الامارات المتنازعة

للقوف في وجه الغزو الصليبي وطرده المعتدين . ولذا حاول نور الدين
وصلاح الدين ، احتلال قلاع الدعوة . وعندما شعرا بضرورة بقائهما وعجزا
عن اخضاعها ، حالفاهما ضد العدو المشترك .

٣ - اما الامارات الصليبية في الغرب ، فقد كان همها : تناهر الدول
الاسلامية ، والابقاء على حالها من التنازع والحصام والتفكك ، وتشجيع
الخصومات ، والافادة من ذلك ، في تعزيز سلطانها . ومن هنا اهتمت بحلقة
الاسماعيليين واسترضائهم بعد ان كلفتها خصومتهم ثمنا غاليا ، من اعناق
ملوكها وامرائها .

ب - علاقة اسماعيليين بالدول الاسلامية :

١ - علاقتهم ببني منقذ : منذ شرع اسماعيليون باحتلال قلاع جبل
البحرة ، بدأوا يفكرون بالاستيلاء على مصيف قاعدة القلاع ، وأهمها على
الاطلاق . فدبروا حيلة ، مكنتهم من الصعود الى القلعة ، وانتزاعها من
ملوك بني منقذ اصحاب شيزر سنة ٥٣٥ هـ (١١٤١ م . وعملوا بعد
احتلال هذا المركز الممتاز في بسط سلطانهم ، على حساب جيرانهم . وقد
حفزهم على العمل ضد بني منقذ ، الضعف الذي حل بهم . فشنوا عدة حملات
عدائية قوامها الاعداء الوفيرة من الفدائيين الذين توجهوا الى شيزر عاصمة بني
منقذ لتقصي أخبارهم ، ومعرفة نواياهم .

ولا شك ان السبب الاول في اذكاء نار العداوة بين بني منقذ والاسماعيليين
هو اغتصاب مصيف من بني منقذ ، ومحاولة هؤلاء الانتقام من اتباع

(١) ابن الاثير ج ١٠ ص ٢٤٠ .

الاسماعيلية في شيزر ، وقتلهم كلها سنحت الفرصة (١) . ولكن الظروف كانت في جانب الاسماعيليين ، فقدمت لهم خير عون ، بانتهاء دولة بني منقذ الى الخراب ، اثر زلزال خطير ، هدم عدداً من القلاع السورية ، ومنها شيزر التي مات بين انقاضها المنقذيون ، فبادر الاسماعيليون لاحتلالها عام ٥٥٢ هـ وتلا ذلك مجيء سنان (٥٥٨ هـ) الذي حافظ على شيزر حتى انتزعها نور الدين زنكي ٥٦٤ هـ .

٢ - الاسماعيليون والزنكيون : اذا كانت العداوة بين بني منقذ ، والاسماعيليين في مصياف ، وليدة اطماع الاسماعيليين في التوسع ، واحتلال املاك جيرانهم . فقد كانت الخصومة بين نور الدين زنكي ، وسنان راشد من نتائج سياسة نور الدين زنكي ، الرامية الى توحيد الجبهة الاسلامية ، وضم الامارات السورية تحت لوائه ، لطرد القوى الصليبية .

ومن اجل ذلك بدأ بالعمل لاحتلال قلاع الدعوة ، وضمها الى املاكه فنشب نزاع بينهما وبين اتباع سنان في شيزر ، وانتهى النزاع باخضاع شيزر واقتطاعها من جسم دولة مصياف ، دون ان يتمكن شيخ الجبل من تجنب هذه النتيجة (٥٦٤ هـ) (٢) لانفراد قلعة شيزر في وسط املاك نور الدين ، المحيطة بها في الشمال والجنوب ، وفقدانها الميزات والخصائص التي تتمتع بها قلاع الدعوة في جبل البهرة ، من تحصن ومناعة ، طبيعيين . ولبعدها عن مركز قلاع الدعوة .

(١) انظر لاعتبار لأسامة بن منقذ

(٢) مشيل لباد ، تاريخ قلعة مصياف ، ص ١٧

ولم يكن خطر نور الدين في نظر الاسماعيليين ليقصر على احتلال شيزر بل تجلّى هذا الخطر بصورة واضحة ، عندما تمكن نور الدين من توحيد بلاد الشام ، ومصر ، وقضى على الدولة الفاطمية ، بفضل نائبه صلاح الدين . وزحف على تخوم بلاد البهرة اكثر من مرة بين (٥٢٣ هـ - ٥٦٤ هـ) دون ان ينال منها . ولكنه اشعر الاسماعيليين بخطر هجوم مفاجيء ، وأثار مخاوف شيخ الجبل .

ولم يكن بمقدور سنان ، تجنيد جيش يكفل له صد نور الدين وايقاف زحفه ، فليجأ لإرسال أحد فدائيه ، الشجعان فتمكن من وضع خنجر مسموم ورسالة وعيد وتهديد ، عند رأس نور الدين (١) تتضمن إنذاره بأسوأ العواقب إذا فكر بالتوغل أكثر من ذلك في بلاد الاسماعيليين ، وعمد سنان بنفس الوقت ، للتفاوض مع الصليبيين لدرء الخطر المحدق به من الشرق ، فأرسل الى أمالاريك ملك القدس وفداً يعرض عليه مشروع تحالف ضد نور الدين مأموراً بميل اتباعه لاعتناق النصرانية طالباً إلغاء الضرائب التي فرضها فرسان الهيكل على بعض القرى الاسماعيلية المجاورة لهم (٢)

فلقيت وفود شيخ الجبل ترحيباً كبيراً من أمالاريك ملك الصليبيين وشجع هذه البادرة الجديدة للافادة منها في درء خطر دولة نور الدين النامية بيدان فرسان الهيكل حرصاً منهم على الجزية عمدوا الى قتل اعضاء الوفد (٣) الامر الذي لن ينساه سنان ما دام حياً . ويبدو من هذا ، أن المصالح

(١) r . runciman , vol 3

(٢) Grosset , Hist oire dera Croisades

(٣) حتى تاريخ سورية ٢ ص ٢٤٧

السياسية وحدها هي التي ربطت بين سنان واماالريك ضد خصم مشترك وهذا التصرف يبرر قول بعض المؤرخين أن المحور الأعظم الذي تدور عليه الاسماعيلية هو مسائل الملك والسلطان (١) مما دفع بعض الكتاب كابن تيمية قديماً للتهجم الشديد عليهم دون التوصل لفهم حركتهم .

٣ - سنان وصلاح الدين : ولعل نور الدين فكر بالإنصراف عن فتح قلاع الدعوة بنتيجة هذا الإنذار ، ولانشغاله بالحماد الفتن الداخلية . وبعد وفاته ٥٦٩ هـ تزعّم الجبهة العربية الاسلامية في سورية ومصر الناصر صلاح الدين الأيوبي فتابع سياسة سلفه الرامية الى توحيد القوى العربية الاسلامية ضد الصليبيين . وكانت اسباب النزاع بينه وبين سنان كثيرة يمكن ايجازها بعبارات قليلة .

ولقد ألقى سنان أن الأيوبيين في الشرق ، هم — دون دولته ، تهديد الصليبيين لها في الغرب . فعكف على معالجة المشاكل الناجمة عن قوة صلاح الدين التي بدأت تحدث اضطراباً في ميزان القوى الدولية ، قد يطمح بدولته الصغيرة ، سيما بعد ما لمس سنان ، ومن ورائه الاسماعيليون ، أن صلاح الدين ، لم يتورع عن القتك بالفاطمين بمصر وثل عرشهم ذي الجلال في قلب عاصمتهم . فكان ذلك إنذار لسنان الاسماعيلي بما سيحل به ، اذا وقف مكتوف الايدي تجاه حاكم عظيم جريء . لا تأخذه شفقة ولا رحمة في مقارعة الخصوم ، ويفضل سياسة الحزم والشدة ، عندما يقتضي الأمر ذلك فيقتل الأسرة الفاطمية ، ويحجز على آل الخليفة الفاطمي العاضد ، وكانوا

أحد عشر ولداً ، وأربع بنات ، وأربع زوجات ، وأقارب آخرون يربو
عددهم على ١٧٠ شخصاً (١)

حزّ الألم في نفس راشد الدين سنان ، وشعر بالخطر ، فشرع يعد للامر
عدته . بما أوتي من ذكاء وبصيرة . وساط على المشاكل التي واجهته قدراً
من عبقريته كفيلاً بوقف الخطر ، وحل المشاكل أوفق الحلول .
فاعتبر نفسه وريث دولة القواطم في القاهرة ونهض ببعب الدفاع عن آخر
ارث لها في الدنيا بجزم وعزم . فاختار طريقة الضرب العنيف في الغرب
والشرق حتى حول خصومه بحد السيف الى أصدقاء ، وتحدى بفدائيته
وقلاعه أعظم ملوك العصر فقتل بهم في حلق جيراية حتى أرغمهم على
مسالمته فرفعته تلك المواقف الجريئة من ساطع المجد الى سامق العظمة والسلطان
وهكذا شهر على صلاح الدين سلسلة من الاغتيالات المروعة ، وانتهت
بصلح على جانب كبير من الصدق والمتانة ، بدأت تلك الاغتيالات والتهديدات
في القاهرة عقب القضاء على الأسرة الفاطمية ، اذ أوفد سنان شيخ الجبل
أحد فدائييه الامناء المخلصين المدعو (حسن الاكرمي) الى القاهرة وأمره
بتهديد صلاح الدين ، وتمكن هذا الفدائي من دخول القصر الملكي والوصول
الى حجرة رقاد السلطان صلاح الدين الابوي ، فوجده غارقاً في احلامه
يفط في سبات عميق ، فترك له خنجرأ مسلولاً ، منطعاً بالدم ، بقرب الوسادة
كما ترك بطاقة كتب عليها « إعلم ايها السلطان المغتصب العاتي . . إنك وإن
أقفلت الأبواب ، ووضعت الحراس ، لا تستطيع أن تنجيو من القصاص
ومن انتقام الاسماعيلية . أراك قد بالغت في القحة واستبديت وقتلت ، وظلمت

(١) مصطفى غالب ، تاريخ الدعوة . ص ٢١١

وسلمت ، دون ان تحسب حساباً . لشيخ الجبل الاسماعيلي .. إننا ننذرك
لتصلح من سيرك . الخ » (١)

ولكن سنأنا أحجم في رأينا ، عن مقتل صلاح الدين هذه المرة ،
لبعده عن مصياف ولأنه وجد ، أن من الخير له ولدولته ، بقاء صلاح الدين
خليفة لنور الدين في حفظ التوازن الدولي . ومتى اشتد حظره ، أمكن
اغتياله ، كما أدرك سنان أن إغتيال صلاح الدين لا يؤدي إلى الغرض المنشود
بل قد يؤدي إلى عكس ما يطمح إليه من هجوم صليبي خطير ، كما أن خلفاء
صلاح الدين قد لا يختلفون عنه . فأرجأ تنفيذ الاغتيال حرصاً على مصلحة
دولته مكتئباً بالتهديد والوعيد

ولكن موقف سنان يتغير بمجيء السلطان صلاح الدين إلى سورية ، ويتبدى
الخطر ماثلاً ، عندما يحتل المناطق المتاخمة لدولة مصياف ، فيضم حصص ثم
حماء ، ويريجافله الهيبة من أمام مصياف ، تدفعه هفة حارة لتوحيد
الجبهة السورية المصرية . وهنا يلجأ صاحب حماه عز الدين جرديك للاستغاثة
بسنان (٢) فيقدم له ضياعاً وأموالاً مقابل صد صلاح الدين عن حماه
ولكن سرعة الحوادث تقضي على هذا المشروع بالفشل وينتهي
أمر حماه بالسقوط على يد السلطان العظيم ، ليتوجه بعد ذلك إلى
حلب ، مقر الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين زنكي ، ومرييه سعد
الدين كمشتكين . ويضرب عليها الحصار ليرغمها على التسليم ، فلا تجد مهرباً

(١) غالب ص ٢١٢

(٢) كرد علي ح ٢ ص ٥١ وابن الاثير .

من التسليم ، أو الاستغاثة بسيد قلاع الدعوة في جبال الهمرة ، وخضم
صلاح الدين العنيد . وقد فضل سعد الدين كمشكين كما يروي كثير من
المؤرخين ارسال الاموال الطائلة الى سنان لقتل صلاح الدين . فبعث سنان
جماعة من فدائيه لاغتيال السلطان صلاح الدين ، وقد غدروا به بينما كان
يحاصر حلب ، وانهالوا عليه ضرباً وطعناً فجرحوه وكادوا يجهزون عليه
لولا الزردية التي كانت يرتديها (١) .

ثم أغار صلاح الدين على بعض القرى الاسماعيليه في جهات حلب سنة
٥٧١ هـ وضرب بزاعة واعزاز ، فوثب عليه فدائي وطعنه بسكين في رأسه ،
فجرحه جرحاً بليغاً . وتمكن أخيراً جنود صلاح الدين من القبض على هذا
الاسماعيلي وتقطيعه ارباً ، فهجم عليه فدائي آخر وضربه بخنجره عدة
ضربات ، فألقي القبض عليه وأعدم فوراً . وعاد السلطان صلاح الدين
مدعوراً ، والتجأ الى خيمته ، وتشدد في فرض الحراسة والحيطه ، خشية
الاغتيال (٢) . وصمم على الثأر من مقدم الاسماعيليين في مصياف .

وانتهز صلاح الدين فرصة صلحه مع الزنكيين في الشمال ، ليشرع في
تنفيذ خطته الهادفة الى دمج الامارات الصغيرة في دولة قوية كبيرة ،
ولينتقم من شيخ الجبل المقيم في مصياف . وهكذا قصد السلطان صلاح
الدين ، مصياف عاصمة قلاع الدعوة ، ومقر شيخ الجبل سنان سنة ٥٧٢ هـ .
فزحف بجيشه الكبير الى مصياف ، وأقام على مقربة من سورها ، أمام

(١) كود علي ، ج ٢ ص ٥١ ؛ وابن الاثير ؛ وابن القلانسي . الخ .

(٢) غالب ص ٢١٢ ، كود علي ج ٢ ص ٥٣ .

قلعتها المهيبة ، الرابضة عند مدخل البلدة ، كالحارس الأمين ، تتلقى
بصدرها الصلح هجمات التدمير . يرشقها بها صلاح الدين ، وينزل بها وابلا
من قنابل مناجيقه ، فيخلف أضرارا فادحة (١) .

واشتد بالناس أذى الحصار ، وبدأت غيوم الشك والخوف تلوح في
الافق ، لأن الناصر صلاح الدين ، لم يغالب خصما الاغلبه ، ولم يحاصر قلعة
الا فتحها ، وكان راشد الدين سنان يتجول في القرى (٢) ، يتفقد أمرها ،
ويعدها لليوم الفاصل والمعركة الحاسمة ، عندما بلغه أمر الحصار الذي ضربه
صلاح الدين . فبادر على الفور الى قمة جبل مشهد ليرقب جيش صلاح الدين
فما علم بذلك السلطان ، أرسل وفداً من خمسين رجلاً الى سنان ، لمفاوضته
على التسليم . فاحتقروا شأن سنان في بادىء الأمر ، ولكنهم أدر كوا بعد
قليل ما يتمتع به الرجل من قوة نفسية خارقة ، وشجاعة نادرة ، فجنحوا
لجاملته واحترامه وسلم اليه رئيس الوفد « محمد الكردي » رسالة من
صلاح الدين جاء فيها : « من الملك المظفر الناصر ملك مصر ، الى سنان زعيم
الاسماعيلية في بلاد الشام ، أعلم ياسنان أنك وإن أغلقت أبواب مدينتك
في وجهي ، فإنك لا تقدر أن تنجو . . . الخ » .

فرد عليه سنان برسالة مع الوفد المفاوض ، « وقفنا على تفصيله وجمه ،
فيا للعجب من ذبابة تطنن في أذن فيل ، ولقد قالها قبلك قوم آخرون
فدمرناهم . وما كان لهم ناصرون (٣) وما صدر من قولك في ضرب العمق

(١) ميشيل لباد ص ١٨

(٢) مخطوط اسماعيلي (مناقب راشد الدين)

(٣) عارف تامر ، سنان وصلاح الدين

فالليل وما وسق ، لتر كبن طبقاً عن طبق كالباحث عن حثفه بظلمة (١) .
وتراث بعد ذلك المفاوضات القائمة على التهديد والتهويل . يحاول بها
صلاح الدين إرهاب سنان دون طائل ، فيرد عليه سنان بكتابات يظهر
ما يمكنه من استهانة لشأن أعظم ملوك العصر وفيه يقول :

يا ذا الذي بقراع السيف هددنا لا قام مصرع جنبي حين تصرعه
قام الحمام الى البازي يروعه واستيقظت لأسود البر أضبعه
أضحى يسد فم الافعى باصبه يكفيه ما قد تلاقي منه إصبه (٢)
لو أن عمرك حبلاً أنت ماسكه فسوف تعلم يوماً كيف نقطعه (٣)
ثم أرسل كتاباً آخر ملىء بالتهديد حافل بالوعيد والمفاخرة يقول فيه :

« بنانث هذا الملك حتى تأثلت ييوك فيما واشتخر عودها
فأصبحت ترمينا بنبل بنا استوى مغارسها منا وفيما حديدها
وفي ذلك بيان لقوة الاسماعيليين في عهد سنان ، فكانوا يتهددون صلاح
الدين كما يتهدد هم . ولذلك في الغالب أغضى عنهم ، وإن حاولوا اغتياله أكثر
من مرة كما تدل هذه الرسائل على جرأة سنان في معاملة ملوك عصره .

ثم امعن سنان في سياسة الارهاب والتخويف ، واعتمد على أحد فدائيته في
الدخول الى خيمة صلاح الدين ، برغم حيطته في فرض الحراسة المشددة ، فبدل
موضع المصاييح التي كانت تنير الخيمة ، ووضع خنجراً مسموماً غرسه في رغيغ

(١) مخطوط اسماعيل يحوي رسائل سنان وصلاح الدين

(٢) ابن حكمان وفيات الأعيان

(٣) مخطوط اسماعيلي في مصياف ، ص ١٥٩

حار (١) قرب رأس صلاح الدين، وبجانبه قطعة من الورق كتب عليها عدة أبيات من نظم راشد الدين سنان منها .

إنا منحناك ثوباً للحياة فإن كنت الشكور والاسوف نخلعه
قد قام قف الى قاف يزعزه كضفدع تحت صخر رام يقلعه
فاستفاق صلاح الدين ، ورأى الخنجر والكتاب ، فاعتقد أن سناناً من
أشراف وأنبل الرجال ، إذ لو أراد قتله لما تأخر عنه بعد أن أصبحت حياته
بيد ذلك الفدائي (٢) .

ولكن سناناً لم يركن للارهاب وحده ، فأرسل وفداً الى خال صلاح
الدين شهاب الدين الحارمي ، أمير حمه ، وصديق سنان . يعتب عليه إخلال
صلاح الدين بمبدأ حسن الجوار . ويدكره بالصدقة التي تربط بينهما وينذره
بأسوأ العواقب ، وهو اغتيال صلاح الدين قائلاً بأن « لا أمان له عندي الا
برجوعه عن قلاع الدعوة » فتوسط شهاب الدين بالصلح بين الطرفين ،
وأشار على صلاح الدين بالإتفاق مع الاسماعيليين ضد الصليبيين .

ومن الجدير بالذكر أن ظروفًا طارئة حملت الطرفين على قبول المهادنة
وإحلال التعاون والوئام ، بدل النزاع والحصام . وتبدلت وجهة نظر
كل من الطرفين المتنازعين .

لقد أدرك صلاح الدين ، بعد حصار طويل ومفاوضات مقرونة بالتهديد ،
أن شيخ الجبل : منيع الجانب قوي الشكيمة ، شجاعاً لايهاب التهديد

(١) يؤكد كتاب مناقب سنان بأن راشد الدين نفسه قام بتنفيذ

العمل ، انظر . R . Grosset , vol3 .

(٢) غالب ص ٢١٣

ولا يخشى الوعيد . تحميه قلاعه وتصوره جباله المنيعه وتحرسه فدائيته
المروعة . فلا سبيل الى إرغامه بالقوة ، ولا أمل بقهره في جباله الشاحنة ،
« ولا يأمن على جيشه في الدخول الى تلك الجبال » (١) .

وأخذ يفكر بترك قلاع الدعوة ، لتقف حاجزاً يرد عن سورية ،
عاديات الصليبيين ويدفع خطرهم ، كما برهنت الايام السالفة بأن خير من دافع
عن سورية ومهر حتى عهد صلاح الدين الفاطميون في مصر ، والاسماعيليون
في مصيف . وخطر له وهو يسمع لهجة سنان المتعالية المتكبرة ، أنه أمام
زعيم من طراز جديد لم يألفه في ذلك العصر ، وجنح الافادة من صداقته
التي قد تؤدي الى أفضل النتائج ، كما شعر بأن تشديد الضغط على شيخ الجبل
الأيبي ، قد يدفعه للتعاون مع الصليبيين فيتضاعف الخطر ، ويؤدي ذلك
الى عكس أهداف صلاح الدين .

وتعاقبت الحوادث بعد ذلك ، فدفعت بهذه الخواطر الى حيز الوجود
إذ وفد على صلاح الدين نفر من أتباعه ، أخبروه بتهديد الافرنج لقوافل
المسلمين . كما إقبل ابن مقدم صاحب بعلبك ودمشق يخبره بهجوم الفرنجة
على بعلبك . عند ذلك آثر صلاح الدين الصلح بعد مفاوضات قصيرة (٢)
ورفع الحصار ، عندما وعده سنان بعدم الاعتداء عليه ومهاجمته (٣)
وتضيف المصادر الاسماعيلية الحديثة « أن سناناً وصلاح الدين اتفقا على

(١) مخطوط اسماعيلي (مناقب سنان)

(٢) ميشيل لباد ص ١٩

(٣) جورج حداد ، المدخل الى تاريخ الحضارة

شروط تنص على عدم الاعتداء ، والتعاون ضد الفرنجة ، وتؤكد إسهام
الاسماعيليين بألاف الجنود والقذائيين في معركة حطين ، واغتيال ملوك الفرنجة
في صور وغيرها (١) .

ونحن نميل لتأكيد هذه الروايات ، لأن ذلك ينسجم تماماً مع الحوادث
المقبلة ويتفق مع المصادر الأفرنجية المعاصرة ، التي تشير الى سعي الأفرنج
للتفاوض مع سنان ، والتحالف معه ضد صلاح الدين ، ولكنه يرفض ذلك
بإباء وعزة . وتسود بين الأفرنج وسنان منازعات مستمرة بعد ذلك .
يعتدي فيها كونراد مونتفرات ، أمير صور على سفينة اسماعيلية في عرض
البحر سنة ٥٨٨ هـ ، فيبعث اليه سنان فدايين لقتله (٢) ، وتنتهي بهزيمته
حياة أكبر الخصوم في وجه صلاح الدين . وتضيف المراجع الاسماعيلية ،
أن سناناً أرسل اثنين من رجاله الى صلاح الدين ، لإعلامه بنويا شيخ الجبل
ثم تسلا الى صور ، فاحتزا رأس كونراد وقدماه الى صلاح الدين ، فكافأهما
وأحسن اليهما ومنحهما دقيقتاً ، وأعطى سناناً عشرين قرى الحقم
بدولة مصيف (٣) .

ويبدو أن سناناً رأى دولة صلاح ذات صفة مباينة لدولة الفرنجة ، فهي

(١) نامر ، وغالب ص ٢١٣ بيخا يروي ، كاتب مناقب راشد الدين
(وهو مخطوط) بأن سناناً أرسل فدايين فقط لقتل ملك صور ، خصم
صلاح الدين .

(٢) أنظر Runciman ومناقب سنان

(٣) مناقب راشد الدين

دولة عربية مسلمة تجاه أعداء غير مسلمين ، وصلاح الدين شخصية جذابة
تتأاز بالوفاء والاخلاص ، إمتيازها بالحزم والشجاعة . والتعاون مع صلاح
الدين يتيح للاسماعيلين عز الاستقلال ومجد الوحدة . لأن صلاح الدين لا يطمع
في هذه الدولة المنيرة التي تحمي صدر دولته من سهام الفرنجة .

وقد كانت نظرة سنان الشاقبة ، دليله في قبول الصلح الذي حفظ له
دولته ، ووفر له السلاح والعتاد الذي خلفه له صلاح الدين لحماية
حدوده (١) ، فوزعه على قلاع . وعاش سنان وصلاح الدين صديقين
وفيين تسود علاقتهما الصداقة والوفاء . فلم يفكر صلاح الدين عندما انتزع
سنة ٥٨٤ هـ الساحل المحيط بالدولة الاسماعيليه ، من الفرنجة ، بهجمة سنان
وقد أصبح محصوراً بين قوى صلاح الدين في الشرق والغرب ، كما لم يفكر
سنان بنقض معاهدته مع صلاح الدين ، محافظاً على عهوده ، أميناً
لسياسته ، وفيماً في صداقته .

وقد استمرت اواصر الصداقة ، وحافظ كل من الاسماعيلين والايوبين
على وعوده بعدم الاعتداء ، والحرص على حسن الجوار ، في عهد خلفاء
راشد الدين سنان ، وخلفاء صلاح الدين . وسارت كلتا الدولتين نحو التفكك
والانحلال ، بتأثير النزاع الداخلي ، والهجوم الخارجي ، وعكفت كل منهما
على ذاتها ، تداوي جراح المنازعات والخصومات الداخلية .

٤ - الاسماعيليون والمالكيك : عاشت دولة الاسماعيليين في مصياف ،
بعد وفاة راشد الدين سنة ٥٨٨ هـ ، بعزل عن أحداث العصر ، فلم تعد

(١) خطوط اسماعيلي « مناقب المولى راشد الدين »

تلعب دورها السابق في تقرير السياسة الدولية ، ولم يعد لها شأنها في التأثير على توجيه العلاقات السياسية . فانزوت وراء قلاع الدعوة وفي شعاب جبل البهرة ، تتأمل بعين الخوف والاستسلام ما يعتريها من وهن داخلي بعد سنان ، سيستمر حتى يقبل من الشرق ، الغازي التتري السفاح ، هولاكو ، فيحاصر اربعا من قلاع الدعوة هي مصيف ، القدموس ، الخواني ، الكهف ، فتسقط بيده سنة ٦٥٨ هـ ولكن الاسماعيليين يسترجعونها بعد اندحار التتر امام الجيوش المصرية السورية في عين حالت (١) .

يبدو ان الدولة الاسماعيلية ، اخذت تشعر بالضعف المتزايد ، بعد التخریب التتري ، والنزاع الداخلي المستمر ، وما لبث أن عرضوا صداقتهم على بيبرس سنة ٦٦١ هـ فأحسن اليهم ، وقبل صداقتهم ، وترك لهم حصونهم واعفاهم من الضرائب .

واخذ بيبرس على عاتقه في هذه الفترة ، توحيد الجبهة الاسلامية ، وطرد بقيايا الفرنجة من سورية ، ولذا شن حملات متوالية لتطهير الساحل . وفي سنة ٦٦٨ هـ توجه لرد التتر ، الذين بلغوا الفرات من الشرق . وفي اثناء عودته هاجم الساحل ، وانحدر من انطاكية نحو قلاع الدعوة وتسلم قلعة مصيف صلحا ، وفتح الكهف والقدموس والمينقة والعليقة . وأمر عليها نجم الدين حسن بن الشعراي . وفرض عليه جزية قدرها مائة الف درهم (٢) .

(١) عمر ابو النصر . قلعة الموت . وشاكو مصطفى .

(٢) كرد علي ج ٢ ص ١٢٠ .

ثم عاود الهجوم على حصون الفرنجة (المرقب والاكراد) ، فقدم اليه
الامراء المحليون فرائض الطاعة عدا نجم الدين حسن امير مصياف ، الذي بعث اليه
وقدأ ، يطلب تنقيص الجزية ، ففضب ببيرس ، وعزل نجم الدين حسن وولى
مكانه صارم الدين مبارك ، صاحب العليقة على ان يقدم له خراجاً سنوياً
قدره (١٢٠) الف درهم و ٢٠٠ مد شعير عن مصياف و ٢٠٠٠ دينار عن
بقية الاملاك)

ولكن ببيرس كان يتحين الفرص للتخلص من هذه الدولة ، بعد زوال
مهمتها في الدفاع ضد الخطر الصليبي وذلك عندما اعتراها الضعف ، وانحدر
الصليبيون الى زوال اكيدي وشيك ، فشن على سورية ثلاث حملات متوالية
اخضع فيها القلاع الاسماعيلية الواحدة تلو الاخرى وسقطت مصياف ، وتلتها
العليقة ، والكهف والقدموس . فشرد ببيرس زعماءها ونفى امراءها (١) .
وهذا يؤكد ما نذهب اليه ، من ان استقلال دولة مصياف ، كان رهيناً
بالتوازن الدولي . وقد أدرك شيوخ الجبل طبيعة وضعهم ، فحرصوا على التوازن
وانهارت دولتهم بانهميار ذلك التوازن . ومن الملاحظ ان سقوط مصياف
عجل " بسقوط بقية القلاع . مما يشير الى أهمية مصياف . وبذلك انتهى
عهد الزاهر واختفت من مسرح التاريخ ، كدولة مستقلة تخفق على قلاعها
ألوية الحمد ، لتعقد كسابق عهدها ، مقاطعة سورية ، تنتقل من حكم المماليك
الى الاتراك ، فالفرنسيين ، وأخيراً تصبح منطقة من مناطق الجمهورية السورية .

(١) المقريزي - الساوك ج ٣ ص ٩٩٦ ، خلافاً لما يقوله السيد مصطفى
غالب ، من معاونة الاسماعيليين لبيرس بألاف البحارة والجند ،
واحسانه اليهم .

٢ - علاقة مصياف بالفرنجية : لم يغير شيوخ الجبل سياستهم وعلاقتهم

مع الفرنجة الا وفقاً لما ، تلميه مصالحهم ، كما تفعل الدول العصرية اليوم ، وكما فعلت الدول المجاورة لهم أيضاً ، وقد ساءت العلاقة بين الطرفين في فترات مختلفة من الخصام والنزاع ، كانت تنتهي في الغالب ، بتقديم المصالح السياسية على العواطف والاحقاد الدفينة .

وتنوعت اسباب العداوة ، وضروب الانتقام ، بتنوع العهود ، وتغير الاحوال . وامتازت بتذبذبها وتطورها معاً ، والحق كانت العداوة مستحكمة لاتصال الحد بالحد ، واحتكاك الفرنجة بالاسماعيليين ، ومحاربة الفواطم وانتزاع الساحل منهم بحد السيف . واذ ارثت هذه الاسباب نار العداوة في كثير من الاحيان ، فقد سادت في كثير من الاحوال الأخرى علاقات الطرفين مظاهر الود ، وحسن الجوار . وذلك عندما يشتد الخطر على دولة مصياف من جهة الشرق ، وحالما تشعر الدولة الفرنجية بذلك الخطر . ولم تكن علاقة مصياف بالفرنجية الا ردأ لعدوان من الشرق ، أو اتقاء هجوم مرتقب بعد نهوض عتيد .

وعندما وطد الاسماعيليون امارتهم في مصياف ، وجدوا انفسهم أمام قوة طامعة في الغرب ، وقوة ناهضة في الشرق ، فأخذوا يعملون للتمكين لدولتهم بتحسين القلاع ، وحشدتها بالجند ، وتدريب الفدائية في مدرسة الكهف . ولما شعرت دولة مصياف بنذر الخطر تلوح في الغرب ، من قبل ريموند ، أمير طرابلس الفرنجي أنزلت سلاحها الجديد ولوحت به ، فهوى ريموند عن عرشه مخرجاً بدمه على يد أحد الفدائيين (٥٤٧ هـ) . (١٥٢ م)

وفي عهد سنان (٥٥٨ - ٥٩٠ هـ) مارست دولة مصياف الاسماعيلية سياسة ناشطة في كل الجهات ، وبدأ عهد سنان ، بمقاومة حملات نور الدين زنكي في الشرق ، الذي اغتصب قلعة شيزر الاسماعيلية ، واستهان بقوة سنان مما دفع بهذا السيامي الطموح لمراسلة (أماً لأريك) ملك الفرنجة ، لعقد معاهدة صداقة ضد نور الدين ، فشعر ملك الفرنجة بالخطر المحدق به ، هو الآخر ، من قوة نور الدين المتزايدة ، بعد توحيد الجبهة السورية - المصرية فشجع وفد شيخ الجبل ورحب به ، وعقد أواصر الصداقة بين الطرفين (٥٦٩ هـ - ١١٧٤ م) (١) . ولعل دافعاً آخر اثار نقمة سنان وجنوحه للتعاون مع الفرنجة يتلخص باعتداء نور الدين على أملاكه في سورية ، واغتصاب عرش الفواطم في مصر .

يبدو ان مجيء صلاح الدين الى سورية . واتفاقه مع شيخ الجبل سنان ، بعد ثلاثة أعوام ، حول مجرى السياسة بين الطرفين ، حتى وفاة سنان واتاح لدولة مصياف ان تلعب دوراً هاماً في حماية قلب الوطن من سهام الفرنجة وقدر هذه الدولة ان تسهم في عهد سنان بتقويض ملك الفرنجة الغاصبين .

فلا يكاد اتباع كونراد مونقترات ، يعترضون سفينة عربية لشيخ الجبل تروح وتجيء بين شواطئ سورية ومصر ، حتى يرسل راشد الدين وفوده مطالباً بفك الاسرى وتسليم الاموال والسفينة . وان يرفض ملك الفرنجة المتكبر طلب شيخ الجبل ، وخضم صلاح الدين العنيد (٢) ، يسلط عليه شيخ الجبل بعض قذائمه ، فيحتزون رأسه ويقدمونه هدية لبطل الوحدة السورية

(١) انظر Runciman

(٢) انظر نفس المرجع

المصرية - الملك الناصر صلاح الدين (١)

ولعل راشد الدين ، كان يميل للحيداد ، حرصاً على سلامة اتباعه ، ولولا نقض الفرنجة للعهود ، وتعرضهم لسفنه التجارية ، فارادان يفيد من هذه السانحة ، بتلقينهم درساً وعبرة للمستقبل ، وتحذيراً لسواهم من الخصوم . ويؤكد بنفس الوقت فائدة الصداقة المتوثقة بينه وبين صديقه الشهم ، صلاح الدين لمصلحة الوطن العربي .

فيدرك الفرنجة خطر الرجل ، ويبذلون له الوعود ، ويتظاهرون بالود عبثاً ، ثم يأتي الحسن بن سنان ويشعر الفرنجة بعد وفاة سنان ، بالفراغ الهائل الذي خلفه ، فيرع ، هنري دوشامبانيا ، وكان ذاهباً الى انطاكية ، لزيارة شيخ الجبل ، الذي خف لاستقباله ، ودعاه لزيارة قلعته وكان يتولى حراستها جماعة من الاسماعيليين بالثياب البيضاء (٢) وهناك تمكن من فرض هيئته على ضيفه . واهمه مدى الطاعة والشجاعة التي يتصف بها انصاره اذ أمر رجلين ، ان يلقيا بنفسيهما ، من على ابراج القلعة الشاهقة لدى اشارة من « الشيخ » عهد اثنان من الحرس الى الالقاء بنفسيهما من على البوارج فتمزقا شرمزق (٣) رغم توسلات هنري . والتفت شيخ الجبل ليقول لضييفة : هل يفعل رجالك مثل هذا ؟؟ فيجيب هنري بتأثر بالغ . « لا يوجد بين جنود فرنسا من يفعل ذلك » ياسيدي .

(١) انظر ، مصطفى غالب و « عارف تامر » « سنان وصلاح الدين » ومناقب راشد الدين (مخطوط) .

(٢) فيليب حتي تاريخ سورية ج ٢ ص ٢٤٧ .

(٣) حتي ج ٢ ص ٢٤٧ .

ودام عهد من الهدوء بين الطرفين ، حتى بدأ الفرنجة أعمال الغدر والتخريب في دولة مصياف ، وشن ريموند ، الولد الأكبر لبوهيموند ، ملك انطاكية هجوماً عنيفاً على املاك الاسماعيليين ، وحاصر قلعة الخواي سنة (٦١٠ هـ - ١٢١٣ م) فلقى مصرعه بكنيسة طرطوس بطعنة نجلاء ، صوبها فدائي من اتباع شيخ الجبل (١) والتفت شيخ الجبل نحو اصدقائه الأيوبيين يذكركم بالصدقة ، ويهدد الفرنجة بذلك ، فوقفوا الى أجل .

ولكن الظروف الدولية المتغيرة ، وهجوم المغول على دولة ألمات في فارس ، دفعت داعي الدعاة سنة ٦٣٦ هـ لمراسلة ملوك فرنسا وانكلترا ، طالباً اليهم التحالف معه ، لمقاومة الخطر المغولي المشترك . فلما مثل رسول الاسماعيليين بين يدي الملك هنري الثالث ، قال اسقف ونشستر ، الذي حضر الاجتماع . « لنندع هؤلاء الكلاب ، يفترس بعضهم بعضاً ثم ننشئ كنيسة كاثوليكية على انقاضهم . ولقد اختلف زعماء الاسماعيلية في تكوين هذا الحلف ، الذي لونجح ، لنشأت في الشرق الاسلامي حروب على غرار الحروب الصليبية ، قد تغير مجرى التاريخ الاسيوي الاوروي لعدة قرون (٢) . وبعد ما حل بملك فرنسا لويس ، على يدي المصريين في دمياط سنة (٦٥١ هـ - ١٢٥٤ م) من هزائم مروعة ، اخذ يفتش عن حليف يعتمد عليه في صراعه المقبل ، فوجه همه شطر شيخ الجبل في مصياف . وخيل اليه ان الخطر المغولي الداهم من جهة الشرق ، والذي يهدد الطرفين ، قد يجعل شيخ الجبل يلي دعوته سريعاً ، فأخطأ التقدير ، لان شيخ الجبل

(١) انظر Grosset , vol3

(٢) شاكر مصطفى ج ٢ ص ٤٢٥

في مصياف يختلف عن زميله في فارس ، برغم ما اعتراه من وهن وذلك لما تتصف به أملاكه من مناعة طبيعية ، وعزلة جغرافية . ولم يجد شيخ الجبل حرجاً قبل قليل في ارسال وفد ، الى عكا لمفاوضة الملك لويس على شراء سكوت شيخ الجبل ، ووقوفه على الجهاد ، بجزية سنوية تدفعها فرنسا للاسماعيليين وعندما يرفض ملك فرنسا مطالب شيخ الجبل بجفاء وغازلة أمام قادة الجمعيات الحربية . يميل شيخ الجبل للتساهل ، ويجد لويس رغبة ملحّة ، بعد فشله في مصر ، وما يراه من خطر المغول في الشرق ، في التساهل أيضاً . ويبعث بوفد يرأسه (إيف البريتوني) لتوقيع معاهدة بين الطرفين .

وكم كانت دهشة هذا الاوربي كبيرة ، عندما عثر في مكتبة شيخ الجبل في مصياف ، على إنجيل ، وكتب أخرى تشير الى أن بطرس هو تقمص وتجسيد ، لهايل ونوح وإبراهيم . وقد بالغ أهل مصياف بإكرام هذا السفير ، وقدموا له بعض التحف المحلية والهدايا الجميلة منها : زرافة بلورية ، ولوحة شطرنج ، « وخاتم وقيص » ، فقابل لويس ذلك بالمثل وبعث الى شيخ الجبل بأقداح من الفضة والذهب (١) ، عربون صداقة ووفاء ، بعد أن حاول الاسماعيليون اغتياله في فرنسا قبل قيامه بحملته الفاشلة ، مما يشير الى أن نطاق نشاطهم قد امتد الى غربي أوروبا ، كما بلغ منغوليا في الشرق إذ حاولوا اغتيال أحد الخانات أيضاً (٢) .

بيد أن هذا لا يعني تعاون الاسماعيليين مع الفرقة ، كما لا يعني أن مفهوم

(١) انظر R. Grosset

(٢) فيليب حتى ج ٢ ص ٢٤٧

عصرنا الحاضر ، قد ساد فيما مضى . بل لم يكن بمقدور ذلك العصر ، الذي انتقدت فيه الدولة للدين ، وسيطرت فيه العقيدة على شؤون السياسة .
 ترسم خطا الدول القومية كما هو الشأن اليوم . وقدمت لدى الجميع في العصر الوسيط ، مصالح الطائفة على المصالح الأخرى ، وما لبثت دولة مصياف أن انحازت صراحة لحصوم الفرنجة بعد ما لمسته من تعاونهم مع التتر . وتعاونت مع الظاهر بيبرس (١) كما تعاونت سابقاً مع صلاح الدين ، في تطهير أرض الوطن من الصليبيين . ولعله من الانصاف أن نؤكد ، أن دولة مصياف ، وقفت على الحياد وساهمت في تحرير الوطن ورد العدوان كما فعلت دولة الفواطم في مصر . ولم يكن نصيبها من التضحية بقليل رغم تهجم الغلاة .

خاتمة الكتاب

وهكذا نتج عن لقاء الاسلام بالحضارات القارة ، العديد من الفرق ، من أهمها الحركة الاسماعيلية المتفرعة عن الحركة العلوية . وقد امتازت الاسماعيلية بتطورها الدائم ، وشمولها الجامع . كما اتصفت بالتطوف والجدة والابداع . فكانت تجسد المجتمع والعصر والانسان ، تجسيدا ثورياً مبالفاً فيه ، لتخرج بالتاريخ وتصفه من جديد . وهذا يفسر

(١) أنظر مصطفى غالب ، تاريخ الدعوة . (كان التعاون في الواقع من جانب الاسماعيليين الذين أخلصوا في تعاونهم . ولا نرى بيبرس يستمر على ذلك ، بل يتمنكو لصدافته ويسحق الاسماعيليين الى الابد (حتي) عند سنوح الفرصة ، ويحتل مصياف وينفي زعماءها م لباد .

لنا ، ابداعها أول اشتراكية عربية عجيبة ، وأول منظمة سرية رهيبة
وأول جمعية علمية تنتج أول موسوعة علمية في العالم كما نعتقد . وتعتبر من
الحركات الجدلية الشاملة في تاريخنا ، فأنشأت الدول ، وتخفضت عن حركة
علمية فلسفية فذة تمثلت في « اخوان الصفا » وأسست أكبر مدن العرب
(القاهرة) ، وأعظم جامعات الاسلام وأقدمها (الأزهر) ، وخلقت
تراناً فكرياً وأدبياً وفنياً بمتازاً .

والحركة الاسماعيليه ظاهرة اجتماعية ، نبتت في قلب الحضارة العربية
ونمت معها ، وهي كغيرها من الظواهر مورت بأطوار الطفولة والشباب
والشيخوخة وبرزت في السواد ، وانتشرت من سورية وحطت آخر رحالها
في جبال البهرة في سورية . ومن هناك شنت على خصومها حملة من الاغتيالات
حتى حولتهم الى أصدقاء ، ولكنها بذلك اعلنت عجزها عن متابعة النضال
السلمي . لذا احتمت خلف ستار الحركة السرية وأسوار القلاع الحربية
متنكبة السبيل المألوف ، خارجة على ما اعتاده الناس من تقاليد . ولا
عجب في ذلك فالحرمان والقسر يدفعان بكل حركة لتخطي الحواجز
الاجتماعية .

وبما يسجل لدولة مصياف الاسماعيليه انها حمت ببعالقتها قلب الوطن
من عدوان الفرنجة ، وحافظت على قبس الفكر في عتمة عصور الانحطاط
يوم جرف الطوفان المغولي بقايا السيادة العربية .

وبعد أليس من المحتمل اذاً للناس ، ان يعيشوا بسلام ، في هذا العالم
المفهم بالجمال ، تحت سماء ذات نجوم ؟ . لقد طلق الاسماعيليون احلامهم
وجنحوا للسلام لذا قال عنهم روسو « انهم على جانب كبير من الكرم
ولطف الاخلاق ويتمسكون بأهداب دينهم الذي يخالف مذهبهم القديم
وم اشداء عند الحاجة » . والحق لقد هجروا اسوار القلاع بعد ان بهروا
التاريخ ، ليستقروا في صفحاته ، أمثلة غابرة لملاحمة العربي الثوري في
صراعه مع القدر .

بعض مصادر البحث

- ١ - ابن الاثير الكامل في التاريخ المطبعة الكبرى بمصر (١٣٩٠ هـ)
- ٢ - ابو شامة ذيل الروضتين مطبعة وادي النيل (١٢٧٨ هـ)
- ٣ - ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق المطبعة اليسوعية ببيروت ١٩٠٨
- ٤ - ابن شداد الموصل النواذر السلطانية مطبعة التمدن بمصر ١٩٠٢
- ٥ - اسامة بن منقذ الاعتبار جامعة برنستون ١٩٣٠
- ٦ - ابن تغري بردي النجوم الزاهرة مطبعة دار الكتب بالقاهرة ١٩٣٠
- ٧ - المقرئ السالك مطبعة دار الكتب بالقاهرة ١٩٣٤
- ٨ - ابو الفداء تقويم البلدان باريس ١٨٤٠
- ٩ - ياقوت الحموي معجم البلدان مصر ١٩٣٨
- ١٠ - ابن العديم زبدة الحلب (في مجلدين) دمشق ١٩٥١ - ١٩٥٤
- ١١ - عبد الله عنان الجمعيات السرية دار الهلال ١٩٣٦
- ١٢ - عمر ابو النصر قلعة الموت دار الاحد ١٩٤٦
- ١٣ - شاكرو مصطفى في التاريخ العباسي ج ٢ (على الآلة الطباعة)
- ١٤ - عارف تامر سنان وصلاح الدين بيروت ١٩٥٦
- ١٥ - ميشيل لباد تاريخ قلعة مصيف (رسالة جامعية)
- ١٦ - الفلقشندي صبح الاعشى المطبعة الاميرية بالقاهرة ١٩٢٤

١٧- الموسوعة الاسلامية ترجمة الدكتور عبد الحميد يونس وزملائه

١٨- دائرة معارف البستاني

١٩- محمد كرد علي خطط الشام مطبعة الترقى بدمشق ١٩٢٧

٢٠- فيليب حتي تاريخ سورية وتاريخ العرب، الترجمة العربية

٢١- حسن ابراهيم حسن تاريخ الاسلام السياسي ج ٣

٢٢- دي بور تاريخ الفلسفة في الاسلام ترجمة اوريدو ط ٤

٢٣- مصطفى غالب تاريخ الدعوة الاسماعيلية

٢٤- بعض المخطوطات الاسماعيلية في مصياف .

La guides blues . M . Monmarche . Paris 1932 ٢٥

Topographie historique . R . Daussaud . paris 1927 ٢٦

La syrie Antique " " " " ٢٧

Histoire de La Croisades , R ,Grousset . V ol 3 ٢٨

History Of Crusades . Runciman , Vol 3 1955 ٢٩

Arban life In Syria. N . Ziad- h . Beirut .1955 ٣٠

Encyclopaedia Britannica ٣١

Syria . R . F edden . London 1955 ٣٢

ملاحظة : نعتذر عن بعض الاخطاء المطبعية التي وردت سهواً



تحت سماء الشرق البراقة ، ظلت العقائد الدينية تصنع التاريخ ، وتقود
الجهان أطول حقبة من التاريخ .

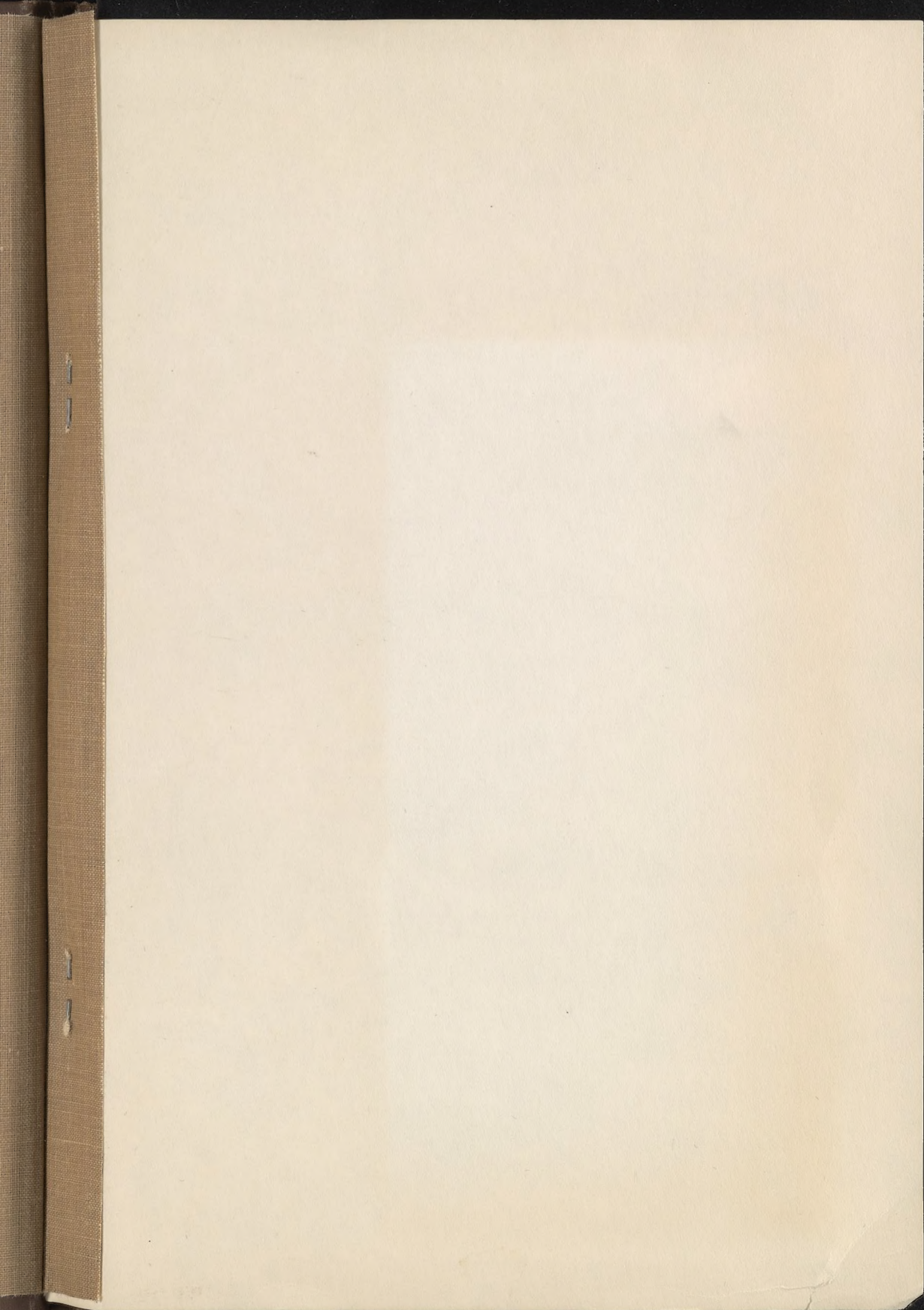
وما الحركة لاسماعيلية الا محاولة جدية ، لصنع تاريخ جديد ، يجمع بين
العقل والدين ، والثقافة النظرية والتنظيم السياسي .

وهي اذ تنمو مع ازدهار الحضارة العربية ، وتمدبظلالها على أوسع
البقاع . ما تلبث ان تتقاص وراء قلاع فارس وسورية .

لقد انطلقت من السامية لتكتب آخر فصولها في مصيف ، حيث
واجهت أقوى الدول الصليبية والاسلامية ، بحفنة من بوابل الفدائية ، تلك
المنظمة العجيبة التي ابدعها ابن الصباح ، واستغلها راشد الدين سنان ،
أدهى شيوخ الجبل وأعلمهم ، في اغتيال خصومه من الصليبيين والمسلمين
وأرهابهم . ليضمن لدولته الاستقلال . حيث بدأت تزدهر رسائل اخوان
الصف ، ويتفتح الشعر والادب .

وميزة هذه المحاولة المتواضعة ، انها بحثت لأول مرة ، فيما نحسب
تاريخ دولة مصيف ، وجمعت بين نشر الاخبار والافكار ، وربطت الدعوة

بتجلياتها : العقائدية والسياسية والثقافية في كل موحد .



893.796

L11

APR 1 0 1964

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE



CU58837388

893.796 L11

Ismailiyun wa-al-daw

893.796-L11